سلامة موسى

دراسات سيكلوجية

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث عصر الكفاح الهادف

العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ

عندما يقول أحدنا أنه درس فرويد فانه لا يعنى بذلك أنه يسلم بكل ما قاله وزعمه عن النفس البشرية . كما أن من درسوا داروين أو أينشتين أو سارتر أو هيجل لايسلمون بكل ما قاله هؤلاء . اذ ليس الدرس حفظاً « عن ظهر قلب » وليست السيكلوجية رقية تتلوها على المريض فيشفى.وإنما هى تقليب للفكرة أو الفكرات ومناقشتها . بل قد يكون الدرس بالانعطاف بها إلى وجهات أخرى غير وجهتها الاصلية

بل أزيد على ذلك وأقول إننا ننتفع أحياناً بالخطأ كما ننتفع بالإصابة عند المفكر العظيم . وقد سبق لى ان قلت مثل هذا القول عن فرويد . وأخطاء فرويد أو ما يزعمه البعض أنها أخطاء، قد بعثت مئات المفكرين فى أنحاء العالم المتمدن على بحث النفس البشرية يوافقون فيها فرويد أو يخالفونه أو يناقضونه ، ولكنهم فى كل ذلك يبحثون

وهنا عظمة هذا المفكر الذى شرع قبل ستين سنة يتساءل : لم يسلك زيد هذا السلوك الشاذ ويسلك عمرو هذا السلوك السوى ؟

ثم يجيب بأن علة ذلك ترجع إلى أيام الطفولة . وصحيح أنه شرح

العوامل فى هذه الطفولة بما يدعو إلى مناقشة فروضه ونظرياته . ولكنه عيّن حدود المسألة وطالبنا بالحل إذا لم نقبل حله هو الذى وضعه

وماذا تقول فى رجل يبدأ بحوثه بقوله إن لكل اتجاه أو حركة أو سلوك علة ؟ وأننا اذا كنا نجد رجلا مستقيماً وآخر شاذاً، ثم رجلا صالحاً وآخر مجرماً ، ثم امرأة مستهترة وأخرى متحفظة فاننا يجب أن نبحث عن العلة فى هذه الحالات : هل هى فى العائلة ، فى المجتمع ، فى الوراثة ، فى الوسط ؟

لقد قال هو إنها فى العائلة ، فى علاقة الطفل بأبويه فى السنوات الاولى من العمر

ونستطيع أن نخالفه هنا ولكننا لا نستطيع أن نخرج بذلك من المشكلة وهى : لماذا يختلف الناس فى سلوكهم ؟

وهذا السؤال هو سؤاله . وهو فى صميم السيكلوجية التى تبحث « النفس » فى ارتفاعها وانخفاضها ، وسلامتها ومرضها ، واستقامتها وانحرافها

وكلمات « النفس » و « العقل الباطن » و « مركب النقص » و « النرجسية » و « مركب أوديب » هى كلمات مؤقتة تحمل كثيراً من الشبهات . وعندما يتقدم العلم السيكلوجى يستطيع أن يضع المفردات العلمية الدقيقة لهذه الكلمات المؤقتة . وكثير من المناقشات والاختلافات يرجع إلى الشكوك التى تحيط بهذه الكلمات وغيرها لأنها غير محددة المعانى

وأحب أن أصف مؤلفات فرويد بأنها فلسفة ، بل هى أحياناً فن

أكثر مما هي علم. ذلك اني أحس أنها أثارت بصيرتي أو زادتها، وحفزتني على الدرس، وإن يكن هذا الدرس يختلف بل ينحرف عن اتجاهات فرويد. وربما يكون خير وصف لأفكار فرويد انها خمائر

ويكفي أن نلخص أفكار فرويد أو نظرياته أو فروضه فيما يلي:

١ — الفكرة الاولى أن علاقة الطفل بوالديه، منذ يولد، الى السنة الثانية من العمر تعين له مركباً، أي عقدة نفسية، تتألف من استجاباتها ورجوعها أخلاقه وتصرفاته سائر عمره ولو بلغ السبعين أو الثمانين من العمر. وهذا المركب يسمى «مركب أوديب»

وفرويد يصف هذا المركب بأنه علاقة عشقية جنسية بين الطفل وأمه. وهذا العشق يحدث غيرة بينه وبين أبيه. ثم ينشأ صراع في نفسه بعد ذلك بين حبه وغيرته تتكون منه بذرة الاخلاق التي تنمو في اتجاهات معينة وفق السنة الاولى من عمره

واذا كنا نحن نشمئز من هذا التفسير فانه ليس بيننا من ينكر أن في الطفل نبضات واحساسات جنسية غامضة تعم جسمه كله. بل هذه النبضات تبقى طيلة أعمارنا وان كانت الحدة فيها تتحيز أجزاء معينة عندما نكبر ونراهق

واختلافنا مع فرويد هنا ليس بشأن الإنكار لهذه الاحساسات الجنسية في الاطفال وانما بشأن الخطورة التي يعلقها في مستقبل الاخلاق بشأن هذه العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه. وعندي أنه يسرف في المبالغة في قيمة هذه العلاقة، وأنه يصف هذه الاحساسات بأنها «حب جنسي» مع انها لا تزيد على احساس المراهق بلذة الاحتكاك

يبده في « العادة السرية » . أي انها احساس فقط . بل ان هذه العادة تعود الى هذا الاحساس الطفلي القديم

ولكنه هنا ، أي فرويد، عندما وضعنا موضع التأمل لهذه العلاقة حملنا على أن نبحث موقف الأطفال في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارهم . فانحرفنا عن الطريق الذي اتبعه هو في التفسير ولكننا هبطنا على عالم كبير في معاني التربية والاخلاق. وبذلك أخصب فرويد تفكيرنا حتى ونحن نخالفه ، ونتيجة ذلك اننا نقول الآن :

« ان أخلاقنا وميولنا واتجاهاتنا وأطماعنا هي ثمرة ما انغرس في نفوسنا مدة السنوات الثلاث أو الاربع الاولى من أعمارنا »

٢ — والفكرة الثانية ان أحلامنا هي أفكارنا الحرة ، تبدو لنا في رموز تحتاج إلى التفسير حتى نعرف بها أعماق نفوسنا الخافية علينا . فقد يعتقد أحدنا انه رجل صالح ولكنه في أحلامه ، التي لا تحتاج الى صعوبة كبيرة في التفسير ، يثبت أن له نزعات اجرامية خطيرة ، وانه يوشك أن يرتكبها ويحتاج الى التحذير والنصح

٣ — والفكرة الثالثة التي تعلمناها من فرويد هي « العقل الباطن » وهي كلمة سيئة وأسوأ منها « اللا شعور » و « اللاوعي »

ومرجع العقل الباطن اننا نكره استذكار ما يؤلمنا أو يخزينا . ألسنا نقول لأحد الأصدقاء عندمايحدثنا عن شخص نكرهه «دعنا من هذه السيرة . لعنة الله عليه »

والمعنى هنا اننا لا نطيق ذكر الأشياء أو الناس الذين نكرههم وعندئذ نحن نتناساهم أو نكظم سيرتهم أو نضغطها حتى لا ترتفع

الى وعينا، فنتألم ، ولكننا بهذا العمل لانمحو الذكرى ، اذ هى تبقى مختفية فى « العقل الباطن ». فإذا حدث لنا حادث مشابه للحادث قد ضغطناه أو كظمناه (أى نسيناه) قبل عشرين أو ثلاثين سنة فإن عواطف الغضب ، أو الخوف ، أو الاشمئزاز ، أو الخزى ، تعود الينا قوية دينامية فتعين سلوكنا واتجاهاتنا

نسينا الحادث البغيض وبقيت العاطفة التى كانت تلابسه مختبئة فيما نسميه « العقل الباطن »

والأحلام تفرج عنا بعض التفريج برموز تحتاج الى التفسير

ولكن هذه العواطف المكظومة ، المضغوطة ، المنسية ، فى العقل الباطن ، كثيراً ما تحفزنا الى سلوك شاذ اجرامى كما ترى فى المثال التالى :

عمد بعض السيكلوجيين فى انجلترا إلى تحليل وتنويم بعض المجرمين الذين ارتكبوا جريمة القتل العمد فوجدوا أنهم جميعاً تقريباً عندما ينومون ثم يستجوبون يردون على الأسئلة التى توجه إليهم بشأن الأسباب لارتكاب جريمتهم بذكر أسماء أخرى غير أسماء الأشخاص الذين قتلوهم . وعند البحث عن أسماء هؤلاء الأشخاص نجد أنهم كانوا خصومهم أيام الطفولة

هنا البذرة الخصبة التى زرعها فرويد

البيئة الأولى للعائلة هى كل شىء فى الأخلاق تقريباً

وكأن المجرم الذى قتل زيداً وهو فى سن الأربعين أو الخمسين إنما كان يقتل رمزاً . وكأن هذا الخصم قد أحدث انفعالا عميقاً كظم فى

نفسه ، وهو طفل ، ثم جاءت المناسبة او المشابهة للموقف القديم ، فحدث الانتقام بقتل شخص آخر

٤ — والفكرة الرابعة التي تعلمناها من فرويدهي « فن » التحليل. والتحليل هو إيجاد حالة نضع الشخص فيها بحيث يسترخي كأنه في نوم ويفكر فيها كأنه في حلم. وعندئذ يبوح ويستسلم للانفعالات التي كمنت وتعفنت في نفسه منذ عشرين أو ثلاثين سنة . كمنت لأنه كان يضغطها ويتناساها

وهو حين يبوح يرتاح فيذهب عنه التوتر والكرب اللذان لم يكن يعرف سببهما

ثم هو يعرف مرجع التوتر والكرب . فيشفى منهما . لأنه يتعقل ويقول : « مادام السبب لهما قد زال فإني يجب أن أرتاح وأتخلص منهما »

هذه هي الفكرات الاربع الخصبة في فرويد . وقد تفرعت منها عشرات الفكرات الاخرى كان فضل فرويد فيها الإيحاء والتلميح

وميزة فرويد في جميع أبحاثه أنه جريء ومخلص . فمتى حط على فكرة فانه لا يبالي أن يقول بها ويشرحها ولو خالفت مألوف الناس ، وخاصة العامة من « العلماء » الذين يحتضنون الخرافات فيما خرج عن العلم الذي يدرسونه . ثم قد يدعوه إخلاصه إلى أن ينكر بعض أقواله كما فعل في « الرغبة في الموت » التي ظن أنها حقيقـــه استخلصها من التحليل النفسي لبعض المرضى . ثم عاد فأنكرها

إن الذين عاصروا فرويد ودرسوه يحسون أن وجودهم ووعيهم قد زاد في الدنيا

المرضى الذين يعلموننا

قرأت كتاباً هذا الأسبوع بعنوان « عاهات العبقرية » لمؤلفه الدكتور بيت بعثني على التأمل ثم التفكير

فقد تناول المؤلف ، هو طبيب ، خمسة عشر مؤلفاً عبقرياً من الانجليز والفرنسيين ، ثم نقب عن أمراضهم ، ثم وصل بينها وبين عبقرياتهم . بل علل هــــذه العبقريات ، فى قسم كبير منها ، بهذه الامراض

ولأنى أعرف هؤلاء المؤلفين الذين ذكرهم وقرأت لكل منهم بعض مؤلفاته أو جميعها ، فقد لذ لى أن أتابعهم فى القرحة المعدية التى كانت تنخس كارليل من وقت لآخر ، أو فى الدرن الذى كان ينصب الموت شبحاً دائماً أمام الشاعر كيتس ، أو فى الضغط العالى للدم وهو مرض الكاتب العظيم بالزاك

ولكن العاهة التى تحفز إلى التفكير ليست على الدوام مرضاً فى الجسم إذ هى قد تكون عاهة نفسية . كالعرج فى الشاعر بيرون الذى عيرته به أمه فى لحظة غابت فيها عن وجدانها الأموى ، فقال لها وهو

يتمزق : « أمى ، أنا ولدت أعرج » . وكان فى هذه الكلمة انتقامه وحزنه معا

أو قد تكون العاهة عجزاً جنسياً كما فى جون رسكين وكارليل . فقد فرت زوجة الأول ولم تبال أن تفضحه . أما زوجة الثانى فقد أحبته ولكنها لم تنكر أنها كانت تبيت فى غرفة أخرى . ومثل هذه العاهة جديرة بأن تحفز على السخط

هو سخط داخلى شخصى يعود سخطا خارجيا اجتماعيا

يسخط المفكر على نفسه فيتأكله حقد على المجتمع . فيفكر ويحاول التفوق والتعظم كى يستعيض بهما عما يحس من هوان وانكسار . .

هو الإحساس بالنقص يبعث على الرغبة فى التكمل

لقد كان لوفكاديو هيرن الذى ألف أجمل الكتب عن اليابان مشوهاً،فأمضى حياته كلها وهو يصف جمال اليابان : أرضا وماء وجبالا ونساء وصبيانا

وشوهة بيرون الأعرج جعلته يرصد حياته على جمال الفن فى الشعر

* * *

كلنا نعرف أن الألم الخفيف ينبه إلى النشاط . ولكن الكثير منه يخمد أو يميته

قليل من الزرنيخ يقوى وينشط ، ولكن الكثير منه يقتل

وأمراضنا ، مثل النقرس ، والسكر ، والسفلس ، تفرز سموما أو تحدث اضطرابات فى أجسامنا . تتألم منها فنتأمل أو نأرق فنفكر . أو نسخط فندعو إلى ثورة أو تطور

كان داروين وكارليل يأرقان فى الليل إلى قرابة الفجر . وكان كلاهما يشكو الهضم السيء أو القرحة المعدية . لم يكونا يعرفان مايشكوان منه

ولكن هذا الأرق كان فترة الاختمار للتفكير العلمى عند الأول . وهو التفكير الذى أثمر نظرية التطور . كما كان فترة الاختمار الأدبى عند الثانى، وهو اختمار أخرج لنا عديداً من المؤلفات التى ألهبت العقول، وأنارت ، وأشرقت ، وأوجدت معانى جديدة للديمقراطية والإنسانية فى مثل « الابطال » و « الثورة الفرنسية » من مؤلفاته

ولكن سموم الجسم أقل فعلا فى تحريك الذهن من سموم النفس امرأة الأب التى عشنا معها وأتعستنا ونحن أطفال

أب ظالم مستبد حاول أن يكسر عود الطفولة . ولكن العود صلب واستقام . ثم نشأ الطفل وهو يكره الأب . ثم كانت ثورته السابقة على هذا الأب ثورة على المجتمع كله يبحث عيوبه ويدعو إلى المساواة والشرف ومكافحة الظلم . . . مكافحة ظلم الأب قد استحالت إلى مكافحة ظلم المجتمع

وشوهة الجسم التى ولدنا بها ، عرج أو دمامة ، هى فى النهاية شوهة النفس التى تحفز الأشوه على سد النقص ، ونشدان الجمال والكمال

بل يجب ألا ننسى أن الفضيحة السرية فى البيت قد تبقى وخزاً يخز وينخس وينبه ويوقظ

وبهذه الأمراض ، أمراض الجسم وأمراض النفس ، يستحيل الذكاء إلى عبقرية

ولكن « الذكاء » هو الذى يستحيل إلى عبقرية . أما إذا كانت هناك بلادة أو غفلة أو بلاهة فان الاستحالة قد تكون إلى الإجرام . هى عندئذ محاولة الأطفال لأن يكونوا عظماء أفذاذاً ولكن بأسلوب الأطفال

ما هى العاهة التى جعلت فاروق يستحيل إلى مجرم ؟

* * *

كل ذى عاهة جبار

جبار فى ذكائه حتى لقد يصل إلى منصب الوزارة ولو كان أعمى

ولكن إذا لم يكن له من الذكاء أساس، فإنه يتسول حين يكون أعمى.

* * *

هؤلاء العباقرة الذين ذكرهم الدكتور بيت كلهم مريض ، إما بعاهة فى الجسم تؤلم وتؤرق . وإما بعاهة فى النفس ، كدت أقول فى الشرف ، تؤلم وتؤرق

وفى كلتا الحالتين يؤدى الأرق إلى التفكير المثمر

كان كارليل ساخطاً يحس أنه مظلوم . إذ لماذا يقضى عليه القدر

بالعجز والهوان أمام زوجته ، وكانت من جميلات انجلترا ؟

وهو يتضور ويعد لقيماته حين يأكل ولكنه مع ذلك يتألم

وقد قيل له إنها قرحة فى الأمعاء الصغيرة . وقيل له إنها زيغ فى البصر . وقيلت له أسباب أخرى

وقال هو أنه يتـــألم لكثرة الضوضاء . . . كلام مريض من رجل مريض

ساخط على نفسه ثم ساخط على المجتمع

وهو يتحدث كما لو كان نبياً ويأخذ نفسه بصرامة يحاول أن يأخذ المجتمع بمثلها . وهو لهذا السخط على المجتمع يؤلف كتابه « الأبطال » وكأنه هتلر يدعو إلى الزعامة وقيادة هؤلاء العـــامة الذين يقلقونه بضوضائهم وغلاظتهم وعاميتهم

وقد عاصر نابليون ولكنه لم يعده من الأبطال

أجل . إن نابليون قد نبهه إلى أنه مخدوع بالكثيرين ممن سماهم أبطالا

لقد عاصر الثورة الفرنسية . فهو يتأملها ويفكر فيها كثيراً . ثم يؤلف كتابه عنها . كتاباً خالداً تزأر كلماته وتصرخ : الشعب . الشعب . الشعب . وتحس لفرط حماسته أنه كتبه فى نفس واحد

وهو يبدأ هذا الكتاب بداية رمزية هى قصة العقد ، عقد اللؤلؤ الذى فقدته الملكة العاشقة فى استهتار الملوك

وهو ينهى الكتاب نهاية رمزية هى قصة إعدام الملكين واقدام الشعب الفرنسى على إيجاد سنة جديدة وشهور جديدة وأسابيع جديدة . هى السنة الأولى (فى ١٧٩٢)

بداية الكتاب فسق واستهتار بين الملوك
ونهاية الكتاب شعب يكتب تاريخه بيده ويستولى على مستقبله
لقد ذهب عصر الأبطال ونحن فى عصر الشعوب

* * *

وهنا ننظر فيما يقوله عنه الدكتور بيت. فانه يذكر تحت عنوان « مأساة زواجه » أنه تزوج زوجته جين الجميلة الذكية

وكان لهما صديق هو فرود المؤرخ العظيم . وكان كارليل قد نص فى وصيته على تعيينه قيما على مخلفاته الأدبية . وهذا يدل على أن فرود كان على مكانة كبيرة ، بل حميمة ، عند كارليل

وكتب فرود ترجمة كارليل . وذكر فيها القطيعة القهرية بين الزوجين . وأن كلا منهما كان يبيت فى غرفة خاصة به

وكان كارليل ممعوداً يشكو عللا غامضة فى جوفه وصف له لعلاجها أن يتناول مسحوق الزئبق . ولكنه لم ينتفع به

وكما يحدث فى مثل هذه الحالات جعل كارليل يستوصف الأطباء والدجالين كى يشفى من متاعبه . فوصف له بعضهم تمارين رياضية . ووصف آخر زيت الخروع . ووصف ثالث العلاج المائى . وكل هذه العلاجات كانت عقيمة حتى قال : « لا أعرف بين أبناء آدم من هم أقل منفعة من الأطباء »

وكانت هذه كلمة يأس . وكان يعود بين كل تجربة وأخرى إلى مسحوق الزئبق (أى الطباشير والزئبق)

وكان هو يعتقد أن آلامه تعود إلى معدته وكبده

ولكن هذه الآلام كانت تنتقل فى منطقة البطن مما جعل أحد أطباء العيون يشخص مرضه بأنه زيغ فى البصر . والواقع أن أوجاعه كلها ذهبت عنه تقريبا حين أسن ولم يعد يكتب ويقرأ كثيراً

* * *

أعظم ما يغرينا بالسؤال عن كارليل هو :

• لو أن كارليل كان رجلا سوياً سعيداً قانعاً هل كانت عبقريته تجد التعبير والبيان فى هذا الوسط الذهنى الذى خلد شهرته ؟، بل هل كان يمكن أن يكون عبقريا ؟

• تأمل بتهوفن وبودلير وجوجان . واذكر ما كانت تكون نتيجة صحة الجسم والعقل التامة عندهم فى عبقرياتهم . وبكلمة أخرى : إلى أى مدى يتكيف العبقرى بما نسميه « حادثة » وقعت له فى حياته ؟ لو أن كارليل الحذر المتقشف كان كأحد الناس العاديين ، يستطيع أن يأكل كما يهوى ومتى يهوى ، هل كان يصدر هذه الأحكام وهل كان يغسل قلبه فى السم والعلقم حين كان يعبر عنها ؟

• اننا لنعرف أن مرضى النفس يتألمون ويشكون مما يكابدون من الزعزعة وما تولده هذه عندهم من إحساس النقص . ولكن هذه الحال نفسها ، هذه الزعزعة وهذا النقص هى التى تعمل فيهم ، كما لو كانت مهمازا ، كى ينشطوا ويخلقوا . كما أنها تزيدهم عمقا فى البصيرة حين يرون مثل هذا النقص فى الآخرين

« لما وجد أنه لايؤمن بعقيدته الدينية ، وعرف أنه لم يبق أمامه غير المادية تراجع وهو فى رعب . وقام فى نفسه صراع يمزقها . حتى ليقول : « لقد بقيت ثلاثة أسابيع وأنا لا أعرف النوم » . ولكن هذه الحشرجة الذهنية انتهت باهتدائه إلى « ميلاد روحى جديد »

« وهو فى شقائه هذا يحس حباً جديداً للطبقات المسحوقة فى الشعب فيؤلف كتابه « علامات الزمن » الذى يشرح فيه انحطاط التفكير السياسى ويحمل على فسق الساسة الذين لايخدمون الشعب بل يخدمون مصالحهم

« وهو حين يؤلف كتابه عن الثورة الفرنسية يفرح بل يطرب به ويقول : « ها كم كتابا لم يخرج مثله منذ مائة سنة . وهو كتاب يخرج ملتهبا مارقا من قلب رجل حى »

° كان كارليل واحداً من عشرات أو مئات المرضى الذين علمونا

النفس السليمة فى المجتمع السليم

كان المثل الرومانى يقول : « العقل السليم فى الجسم السليم »

وبعض الناس يظن أن هذا المثل حكمة ، مع أنه يخلو من الحكمة ولو عكس لكان أقرب إلى الصحة . ذلك أننا نجد الكثيرين من المرضى بالدرن أو السكر أو النقرس أو الروماتزم لا تؤثر أمراضهم فى سلامة عقولهم ، بل لعل هذه الأمراض تزيد عقولهم يقظة

ولكن العقل المريض كثيراً ما يؤدى إلى مرض الجسم . كما نرى مثلا فى من يتوهم وهماً خاصاً يجعله يعزف عن الطعام ، أو هو يخشى الإفلاس أو الموت فيبقى فى قلق يؤدى إلى هزال الجسم

والعقل مع ذلك ليس كل شىء ، لأننا لا نسلك فى الحياة بما لنا من عقل دائماً وإنما بما لنا من نفس

نحن نستطيع بالعقل أن نجمع أو نطرح الأرقام ونحل مشكلة حسابية أو كيمائية

ولكننا بالنفس نحل مشكلة زوجية لأننا هنا لا نعتمد على منطق الأرقام وإنما على القيم الروحية ، أى الإنسانية ، أو الاجتماعية ،

وما تحمل من معانى الشرف والمروءة والخدمة

ما هى النفس ؟

هى كياننا الاجتماعى ، وهى العقل والعاطفة معا ، وهى موقف معين نتخذه نحو الكون والدنيا ، وهى مجموعة عقائدنا الموروثة والمكسوبة . وهى القيم الروحية والأخلاقية التى نحترمها ونتعلق بها ، وهى إحساساتنا الفنية وأذواقنا ، وكل هذه تنتهى بتعيين اتجاه عواطفنا ومنهج العيش الذى نحيا به

والنفس لذلك أكبر من العقل

ولكن هذه النفس إنما تتكون بالمجتمع

وإذا لم يكن هناك مجتمع نعيش فيه فليس هناك نفس، أى ليس هناك عواطف اجتماعية أو عقائد أو قيم أخلاقية أو احساسات فنية الخ...

ولكن هذه النفس تمرض أحيانا بالجنون او الإجرام او الشذوذ الجنسى وهذه الأمراض جميعها هى استجابة النفس لوسط اجتماعى معين ذلك أن المجتمع السليم يجب أن يخلو ، او يكاد يخلو، من الأمراض النفسية

ولكن إذا كان المجتمع قد أفشى الفاقة فبعث الحرمان فإنه يحيل عدداً كبيراً من الافراد إلى مجرمين يختطفون ويسرقون ويغتالون

وإذا كان هذا المجتمع قد أفشى الخوف والقلق من المستقبل فإن أفراده يفرون منهما إلى الخمر أو إلى أى مخدر آخر أسوأ من الخمر

وإذا طغى الخوف والقلق فإن أفراده يفرون إلى الجنون، بحيث يخترع كل منهم ، وهو على غير وجدان بما يفعل ، جنوناً معيناً يرتاح

إليه ويستقر عليه حتى يقضى سائر عمره وهو سكران بخمر نفسه يلهيه بها عن أسباب القلق والخوف

وإذا كان هذا المجتمع يفصل بين الجنسين ويجعل الزواج مع ذلك مستحيلا إلا بعد سن الثلاثين فإن النفس المحرومة عندئذ تنشد . وتتفشى العاهة النواسية بين الجنسين

وهذا كلام واضح لا تجدى فيه المكابرة بالجدل العابث أو المغالطة الماكرة فالاجرام والجنون والعاهة النواسية هى جميعها أمراض نفسية تعود إلى أحوال معينة فى المجتمع ، تعود إلى مجتمع غير سليم

فإذا توافر العمل والكسب للجميع زالت جرائم السرقة والاحتيال والنصب

وإذا توافر الاختلاط بين الجنسين وأمكن الزواج فى سن مبكرة زالت العاهة النواسية

قلنا « زالت » ولكن هذا لا يعنى أنه قد يكون هناك واحد أو إثنان فى المائة يقعون فى أحد هذه الأمراض لأسباب أخرى محلية مثل نظام العائلة أو نشوء مركبات سيئة أيام الطفولة أو نحو ذلك

ونترك الأمراض وننظر فيما نسميه الإحساس الفنى فى الأديب أو الفنان . ولنسأل أولا : لماذا يختلف الفن بين أمة وأخرى؟

لماذا يكون للألمان مثلا ألحان موسيقية وأغان ورقص تختلف كلها عما عندنا من ألحان وأغان ورقص ؟

السبب أو الأصل لهذا الاختلاف واضح وهو أن جميع هذه الفنون تعتمد على عواطف واتجاهات نفسية فى أبناء الشعب . وهذه

العواطف والاتجاهات اكتسبها هؤلاء الأبناء من المجتمع الذى يعيشون فيه
وإذا تغير المجتمع تغير الرقص والألحان والأغانى
مجتمعنا يختلف عن المجتمع الألمانى، ولذلك ففنوننا الثلاثة هذه تختلف عما يضارعها عند الألمان

وقد ورثنا نحن فنوننا الثلاثة هذه من الاتجاهات النفسية التى عاشت بها مجتمعاتنا فى الألفين من السنين الماضية وهى ، أى هذه الفنون التى نسميها منحطة ، تعبر عن مجتمعاتنا المنحطة فى الألفين من السنين الماضية

اعتبر الرقص مثلا . فإن الراقصة المصرية فى التفاتها إلى البطن والكتفين وفى تثنى أعضائها وميوعتها تمثل الانوثة الحيوانية ، لأن المجتمع المصرى مضى عليه الفان من السنين وهو يعامل المرأة كما لو كانت أنثى فقط

ثم اعتبر الغناء الباكى المتنهد الحزين ، فهو يمثل المجتمع المصرى الذى سحقه المستبدون والمستعمرون فى الألفين من السنين الماضية ومعنى هذا أن أبناء هذا المجتمع يبكون بكاء سريا فى نفوسهم ، ولذلك يرتاحون إلى المغنى أو الملحن الذى يعبر عن هذا البكاء فى الغناء أو اللحن

الفنون اجتماعية ، وعبقرية الفنان اجتماعية ، لأن الفنان هو الذى تتبلور فى نفسه عواطف المجتمع الذى يعيش فيه فيعبر عنها بالأسلوب الفنى الذى يرتاح إليه أبناء هذا المجتمع . فما دام أبناء المجتمع يبكون ويتنهدون فعليه هو أن يحسن البكاء ويتقن التنهد

لقد كانت اسمهان تمثلنا تمثيلا عبقريا فى البكاء والتنهد ولذلك يقول عنها محبوها انها افضل من جميع المغنيات

ونستطيع أن نذكر مثالين من الأدب العربي القديم وأن نعين البواعث الاجتماعية التي ألهمته. فإن عندنا كتابين عظيمين في هذا الأدب . احدهما (الاغاني) الذى ألف للملوك والأمراء والأثرياء . وهو خمر ونساء في واقع الخمر والنساء وليس في أحلامهما . والثاني هو (الف ليلة وليلة) الذى الف للعامة بلغة العامة و [illegible] خمر وطعام ونساء . ولكن ليس عن الواقع وإنما عن الأحلام ، أى أحلام الفقراء المحرومين الذين كانوا يشتهون ولا يجدون

الأول يصف لنا الحياة الواقعة في مجتمع المترفين ، والثاني يصف لنا الحياة الحالمة في مجتمع المحرومين

ولا عجب أن يقرأ الثاني كثيراً في مصر ...

ومع هذا الذى قلت يجب أن أعترف بأن هناك ساخطين على الرقص واللحن والغناء في مصر . وأن هناك محاولات لتغيير هذه الفنون الثلاثة

ولكني أعد هؤلاء الساخطين منحرفين عن المجتمع المصري وذلك لأنهم نشأوا في الثقافة أو الحضارة الاوروبية أو تعودوها . أى أنهم نشأوا في مجتمع آخر فأخذوا بعواطفه وإحساساته

ولكن هذه الفنون لن تتغير إلا إذا تغير المجتمع المصري

إلا إذا تغير في نظرته للمرأة وتقبل راضياً مركزها الإجتماعي الجديد باعتبارها إنساناً ، وليست أنثى فقط ، إنسانا له حق الإقدام والاستقلال والتعلم والاختيار

وإلا إذا اختلط الجنسان من المهد إلى اللحد بحيث لا يعرف أحد الجنسين الانفصال عن الآخر ولو لأسبوع واحد في حياته

وإلا إذا نظرنا إلى الحياة نظرة الاستبشار والتيمن وكففنا عن الخوف

وإلا إذا توافر العمل والكسب لشبابنا وفتياتنا حتى لا يقلقوا

لقد رأيت الرقص الهندى حيث يرقص الرجال مع النسا . وفهمت منه ، بل أيقنت، أن المجتمع الهندى قد تغير

وأنا أستنتج هذا التغير فى المجتمع الهندى بهذا الرقص الجديد أكثر مما أستنتجه باختيار شقيقة نهرو رئيسة لهيئة الأمم

ان النفس السليمة لا تكون إلا فى المجتمع السليم . وهذه الفنون الجميلة هى فى صميمها ، فنون نفسية . وهى مريضة عندنا لأن المجتمع مريض

هذا العلم الجديد

حدث منذ مدة قريبة أن أحد البنائين ، وكان قد تجاوز الخمسين ، احتاج إلى أن يقف على خشبة تعترض وتصل بين جدارين . وكانت على ارتفاع نحو عشر طبقات من البناء . فلما توسط الخشبة نظر إلى أسفل فوجد الهوة التى تفصل بينه وبين الأرض ، فتجمدت عضلاته ، وجعل يصرخ . كأن كابوساً كان قد استولى عليه . وعجز عن أن يتقدم أو أن يتأخر

وحضر إليه زملاؤه وجعلوا يشجعونه على النهوض . ولكنه لم يستطع . ولم تكن الخشبة تتسع لأكثر من واحد يقف عليها ، ولذلك لم يقترب منه أحد لمعاونته على النهوض . واقتصروا على تشجيعه وتحريضه

وبعد أن أقنعوه بأن يكف عن الصراخ وبعد أن استطاعوا تهدئته قليلا استطاع ، وهو يلهث ، أن يصل إلى نهاية الخشبة وينجو

وجعل زملاؤه يضحكون ويسخرون منه ، ويروحون ويجيئون على الخشبة فى نشاط حتى ضحك هو من نفسه . وانتهى عمل اليوم وقصد كل منهم إلى منزله . ولكن فى الصباح التالى لم يحضر هذا العامل

ولم يره زملاؤه بعد ذلك . ويبدو انه ترك هذه الصناعة واختار ماهو أقل خطراً وخوفاً منها

* * *

وحدث أن فتاة تزوجت بضغط من أبويها. ولم تكن تحب زوجها، وليس فى الدنيا شيء أو إنسان نكرهه قدر ما نكره الإقتراب الجنسي من شخص لا نحبه . واشمأزت الفتاة . ولكن عاطفة الإشمئزاز عمت كيانها النفسى كله . فصارت تشمئز من الطعام أو بعضه فلا تأكل . حتى هزلت . وأصبح اختيار الغذاء لها مشكلة حتى بعد أن انفصلت عن هذا الزوج الذى كانت تكرهه . . مشكلة باقية مع زوال أسبابها القريبة

* * *

وحدث ان فتاة جميلة كان أبواها يتعلقان بها ويدللانها . ومات الأب . وماتت الأم بعده ببضعة شهور . وتغيرت الدنيا الباسمة إلى دنيا عابسة فى وجه الفتاة . فجعلت تنفرد وتنعزل فى غرفتها وتحلم بدنيا أخرى فى الخيال غير هذه الدنيا . ولذ لها الخيال فاستمسكت به وأرسخت كيانها النفسى عليه . واطمأنت إلى حياة الخيال ؛ وكان هذا جنونها الذى رفضت أن تتركه وتعود إلى دنيا الواقع

* * *

قدمنا ثلاثة أمثلة عن الاضطراب النفسى الذى قد يصيب أى إنسان

إذا كانت طفولته قد سارت فى غير الطريق السوى بحيث يكون قد أخيف وأزعج وهو دون الثالثة أو الرابعة من العمر . فإنه فى هذه الحال يكمن الخوف فى نفسه حتى إذا اعترضه ظرف مماثل لهذا الخوف القديم عاوده الفزع واستولى عليه جمود الرعب كما حدث فى البناء الذى تجمد على الخشبة

وإذا كان قد مرت به حادثة أو حوادث جعلته يشمئز وهو طفل فان اشمئزازه هذا يبقى كامناً فى نفسه . فاذا بلغ العشرين أو الثلاثين وطرأ عليه طارىء يدعو إلى الإشمئزاز فار به إحساسه القديم . كما حدث لهذه الفتاة

وإذا كان الطفل قد دلل فى الطفولة وأسرف أبواه فى تدليله حتى يجعلا له الدنيا كما لو كانت مفروشة بالورود ، ثم إذا مات هذان الأبوان ، فإن الطفل لا يطيق العيش بعد ذلك . ويستسلم لخيال الجنون

من الذى علمنا ذلك ؟

الذى علمناه هو فرويد . وقد علمناه فى كثير من الأخطاء وسلك بنا طريقاً يحفل بالأشواك . حتى لتكاد مهمتنا تقتصر على التخلص من الاخطاء والأشواك

لا . لم يعلمنا فرويد علماً ولكنه فتح بصيرتنا لفهم الطبيعة والأشياء فتح بصيرتنا . ثم نحن نحاول الآن أن نفتح عقولنا بالعلم ، أى بالتجارب

تعلمنا من فرويد ، ومن أنصاره وأصدقائه ، أن السنوات الأربع الأولى من العمر هي كنز العواطف الذى نستمد منه سائر أعمارنا . وإنما عاطفة سيئة تختبىء فى كياننا النفسى فإنها ستثار وينفض غبارها على حياتنا إذا اصطدمنا بأحداث تولد مايشبه أو يقارب تلك العواطف المندسة فى نفوسنا أيام الطفولة

كلنا يستطيع ، إذا كان سليما ، أن يقف على الخشبة التى تصل بين جدارين فى بناء عال . وكل فتاة تستطيع أن تتحمل هذا الاشمئزاز لوقت ما ثم تنساه . وكلنا يستطيع أن يتحمل موت أبويه .ولكن ذلك البناء الذى رعب وتلك الفتاة التى اشمأزت وتلك الاخرى التى دللت ، كل هؤلاء قد أسىء اليهم فى طفولتهم فعرف الاثنان الاولان الخوف . وعرفت الثالثة التدليل المسرف الذى أعجزها بعد ذلك عن الاستقلال

تعلمنا من فرويد ، ومن أنصاره وخصومه ،أننا إذا كظمنا خوفنا أو اشمئزازنا أو شهواتنا أو همومنا فإنها تستحيل الى بخار محبوس ينفجر عندما يجد مكاناً ضعيفاً يخرج منه . وأعظم ما يهىء له هذا المكان الضعيف أن يعترض الانسان صعوبات تشبه ما اعترضه أيام طفولته

الشجى يبعث الشجى

ولكن هناك احياناً شجى مكتوماً قد كظمناه ونسيناه . فإذاحدث لنا ما يثير مثله أو أقل منه كثيراً تذكرناه وأحييناه

اعتبر هذا المثال :

كان بافلوف ، الذى ربط بين الفسيولوجية والسيكلوجية ، يجرب

تجاربه فى الكلاب . وحدث أن فاض ماء النهر المجاور لمكان الكلاب واقتحم الماء أقفاصها فجعلت تنبح وتصرخ ولا تجد مهرباً . وكان صراخها هستيرياً ، أى كان رعباً وفزعاً وارتعاشاً ، لأن الماء كان يتزايد ويوشك أن يخنقها

ثم ادركت وانقذت

ولكن هذا الرعب والفزع والإرتعاش مع الصراخ الهستيرى كان يعاودها إذا دخل قليل من الماء ، قليل جداً ، إلى أقفاصها وبلل أيديها وسيقانها

عاطفة قديمة مكظومة فى حبسة القفص تثار من النسيان لتتذكر لأقل حادث يقاربها أو يشبهها

وهذا هو شأننا نحن أيضاً . ألا ترى الأم تسمع عن أم قد مات ابنها فتتذكر هى أيضاً ابنها الذى مات قبل عشرين سنة . وتبكى وتنتحب ؟

لما ألح الالمان على لندن بالقاء القنابل من طائراتهم عمدت الحكومة البريطانية إلى ترحيل الاطفال إلى أماكن بعيدة فى الريف كى تأمن عليهم . ووجد أن أولئك الاطفال الذين تحملوا الغربة ، بل تحملوا الاخطار ، هم الذين لم يعرفوا المخاوف والمفازع ولم يضربوا ولم يكظموا فى سنيهم الماضية . أما الذين ضربوا وأخيفوا وأفزعوا فكانوا يضطربون ويرعبون لأقل حادث مخيف

والعبرة أننا إذا أردنا السلامة لأبنائنا عندما يكونون شباناً وكهولاً

وشيوخاً فإن خير ما نفعله أن نؤمن طفولتهم من الخوف والفزع أجل . ومن الاشمئزاز والتدليل

ما الذى يعمل لسلام النفس ؟

أعظم ما يعمل له ، كما قلنا أن نعيش مع أبوين سليمين بحيث لا نجد فى طفولتنا خوفاً أو اضطهاداً أو تدليلا . وأعنى التدليل المسرف ، لان التدليل المعتدل نافع إذ يجعلنا نهفو إلى البيت ونسعد بذكرى الابوين طيلة حياتنا

وأسوأ ما فى الخوف والاضطهاد أننا نكظم . ولابد أن نكظم . لاننا لايمكننا ، ونحن أطفال ، أن نرد اللطمة أو نفطن إلى أن ما نخاف منه لايستحق هذا الرعب الذى نحسه

ومعظمنا يشقى لأنه خائف . أو بكلمة أخرى لأنه جبان

نحن جبناء لأننا فى طفولتنا مرت بنا مخاوف كثيرة . فكمنت . ثم واجهنا مجتمعاً يجعلنا جميعاً مغامرين ، نكسب ونخسر ، ونخشى الغد ، ولانثق بالمستقبل الذى قد يفاجئنا بالمرض أو الافلاس أو موت الابناء أو نحو ذلك

مخاوف أصيلة فى المجتمع تثير مخاوف طفولتنا القديمة فيكون من ذلك شقاؤنا وتوتراتنا

ولكن الشجاع هو الذى لم تمر به مخاوف فى الطفولة إلا فى يسر ، أو كان مقدارها صغيراً فتغلب عليه ، فهو يجابه الدنيا ومافيها من مغامرات وهو شجاع لايبالى الفقر أو المرض أو أية فاجعة أخرى . أى أنه يجتاز

الخشبة التى بين الجدارين بلا خوف وهو سعيد بهذه الشجاعة

هذا العلم الجديد الذى أنار بصيرتنا ويكاد هذه الأيام ينير عقولنا هو علم النفس البشرية . هى السيكلوجية

وهو الآن علم ، أى تجارب فى الكلاب والقردة، والصبيان والنساء والرجال المتزوجين والعزب ، والعاملين والعاطلين والاذكياء والبلهاء

وقد تعلمنا منه أن المجتمع يصنع الفرد . والعائلة تصوغ الانسان - والعائلة بالطبع جزء من المجتمع بل هى أخطر أجزائه فى الموقف السيكلوجى

وتعلمنا منه أن العبقرية من ناحية ، والجريمة من ناحية ، أحداهما طرف لفضائل المجتمع وذكائه والاخرى طرف لرذائله وتوتراته

تعلمنا منه أن الأمراض النفسية هى أمراض قررها المجتمع لأفراده لأنه رسم خططاً وعين آفاقاً وأوجد وسائل لا تطاق ، فكان منها الخوف حتى إذا سار فيها الفرد اكتسب عواطفها وتحطم وجن . ولن يحيا الفرد حياة سليمة إلا فى مجتمع سليم وعائلة سليمة

وأيما تغيير فى المجتمع لابد أن يحدث تغييراً آخر فى العواطف والأخلاق والأهداف والوسائل بين الافراد . ولن نستطيع أن نغير الاخلاق فى أمة بالنصح والإرشاد وإنما نغيرها فقط بتغيير وسائل العيش والإرتزاق

لا . لا يمكن فرداً أن يسعد إذا كان يعيش فى مجتمع شقى . وأولئك الذين يعيشون فى مجتمع شقى ويحاولون تحقيق السعادة لأنفسهم يتخذون

عادة أحد طريقين :

الطريق الاول الذى يسلكه الاكثرون ،الانفراديون ، هو الهروب من المجتمع بالإعتكاف والابتعاد عن مشاكله . وقد يشربون الخمر أو يقرأون القصص البوليسية كى يخدروا عقولهم ويغيبوا عن حقائق هذا المجتمع . وهؤلاء سلبيون

والطريق الثانى الذى يسلكه الاقلون الاجتماعيون هو طريق الكفاح الذى يمارسونه كى يغيروا هذا المجتمع ويصلحوا مؤسساته التى تعفنت ويوجدوا الطمأنينة بدلا من الخوف . وهؤلاء ايجابيون . ولكنهم يفعلون ذلك فى غير الإسراف والشطط اللذين وقع فيهما القديس تولستوى

مرضى النفس وعلاجهم

هناك من الأمراض ما نسميه ، نحن العامة ، جنوناً أو شذوذاً يصيب أحدنا ، فيحاول اخفاءه لأنه يخزيه ، أو هو يلجأ إلى طبيب النفس . وقد يجد فيه المعالج النزيه أو المدجل النصاب

وقد عرضت على إحدى المحاكم بالقاهرة قضية من هذا النوع اصطدم فيها أطباء الأجسام بأطباء النفوس ، كل منهم يقول : « هذه دائرة اختصاصى » وكل منهم يتهم الآخر بالجهل أو بما هو أكثر منه

ومن الحسن أن يقف الشعب على بعض الحقائق كى يستنير عن هذا الموضوع . فاننا، فى بلادنا ، نخرج رويداً رويداً من المجتمع الزراعى إلى مجتمع المدينة . ولذلك عرفنا السرعة والهرولة فى حياتنا ، وتحملنا المسئوليات الجديدة والتكاليف المرهقة ، ولم نعد نستسلم للقدر . وتأخرت مواعيد الزواج وعم الشبان من الجنسين حرمان يطول أو يقصر، وظهرت المدارس والمعاهد بواجباتها المتعددة التى لا يتحملها جميع الصبيان أو الشبان . وأصبح عيشنا ، فى الأغلب ، مباريات اقتصادية تخزى المتخلف أو المتعطل وتبعث على زيادة الجهد لزيادة الثراء

وبكلمة أخرى : كنا نعيش حياتنا الريفية القروية فى استرخاء ورضى وقناعة فأصبحنا نحيا فى المدن فى توتر وسخط وخوف

ولذلك نحن نمرض . أى أن نفوسنا تتوتر . ثم لا تطيق التوتر فتنهار

وحسبك أيها القارىء أن تعرف أن أعظم الأمم فى الأخذ بأسلوب العيش المتمدن العصرى بكل ما يلابسه من عادات عاطفية وذهنية هى الأمة الأمريكية ، ولذلك فإن عدد الأسرة للامراض العقلية والنفسية فى مستشفياتها يزيد على عدد الاسرة للامراض الجسمية

ولست أقصد إلى القول بأن الامراض النفسية هى ثمرة الحضارة العصرية وحدها . فإن بين الريفيين من يمرضون أيضاً . ولكن لكل مريض ريفى واحد نجد نحو خمسين مريضاً ، متمدنا ، بل وربما أكثر إلا فى حالات تعدد الازواج التى تحدث أمراضاً نفسية عديدة بين الزوجات

والامراض النفسية ليست شاذة كل الشذوذ كما نتوهم فإنها جميعاً مظاهر مسرفة لحالاتنا نحن السويين الاصحاء ، فإن الفرق بينى وبين المريض أنى أنا أقلق فى الصباح عندما أعرض لواجبات اليوم. ولكن القلق خفيف أتحمله فى يسر. ولكن مثل هذه الواجبات لا يتحملها المريض لانها تبدو له كما لو كانت جبالا

وليست جميع الامراض النفسية جنوناً مطلقا يحتاج إلى المارستان. فإن هناك حالات من أمراض العقل والنفس يخفيها المريض خزياً

ويحاول التعالج منه ، أو لا يشار . . إد قد يلتدها . وهي تجعله عرضة للفضيحة أو السجن أو تصيبه . لام لاتطاق ستحيل فيها حياته إلى سواد وظلام

أعتبر هذه الحالات التي أؤكد لك أنها عن أشا . . حقيقيين :

١ — موظف لايقل مرتبه السنوي عن ٨٠٠ جنيه لا يتمالك أن ينشل محفظة جاره في الترام أو القطار أو حتى في زحام !

٢ — شاب رياضي إذا وصل إلى ميدان باب الحديد عرق وارتعش لانه لايطيق الاحساس بأنه في ميدان رحب مكشوف . فهو يقصد إلى الجدران المحيطة بهذا الميدان ويلتزم السير إلى جوارها حتى يصل إلى المحطة . ومع هذا الحرص لا . . . الراحة

٣ — شاب آخر قد لزمه الإشمئزاز . فهو يكره خبز الطابون . ولذلك يشترى الدقيق بنفسه ، ويعجنه ، ويخبزه . وهو الذى يطبخ طعامه بنفسه بعد أن يبر اللحم بالصابون واللوفة . بل قد يبلغ اشمئزازه من مياه القاهرة أن يسافر إلى الإسكندرية فيملأ صفيحة أو صفيحتين من ماء البحر الملح . ويعود بها إلى القاهرة فيبخرها ثم يكثف البخار حتى يجد الماء العذب للشرب

٤ — صبي في الثالثة عشرة دل الفحص على أنه فوق الذكاء العادى ، ولكنه متخلف لايفهم الدروس

٥ — شاب مصاب بالعجز الجنسي مع عروسه ، مع أنه لم يتوقع هذا من قبل . . لم يحدث له قط في ممارساته الجنسية السابقة

٦ — رجل وقور فوق الخمسين ولكنه يأخذ بمذهب أبي نواس ، ويعجز عن الاقلاع عن رذيلته

٧ — شاب يسوق السيارة ، ولكن تكاد تكون له ملكة بارعة في التصادم

٨ — شاب يجد ارهاقاً في البيت وفي المدرسة أو الجامعة مع حرمانه ما يلهو به من نزهة أو زيارة للملاهي، وهذا أدى به إلى أرهاق جنسي دائم . فهو إزاء كل هذا الضغط يطلق الدنيا كلها ويخترع لنفسه عالماً من الأحلام ، ويجن

هذه أمراض لا يعرفها الناس لأن أصحابها يخفونها ، وهي بالطبع تحتاج إلى العلاج . ويمكن علاجها

ما هي الأسباب للامراض النفسية والعقلية ؟

اعتقادي أن الشخص الذي أمضى طفولته بين أبوين حكيمين ، لم يدللاه ولم يضطهداه ، ولم يجد قسوة أو تعذيبا لجسمه أو نفسه ، ولم يجد ما أخافه إلى درجة الإفزاع ، ولم تثر غيرته أو ثورته لوجود أخوة قد استبدوا به ، إلى غير ذلك ، مثل هذا الشخص يستطيع أيام شبابه أو كهولته أن يتحمل جبالا من المصاعب دون أن تتزعزع نفسه

ولكن للاسف الآباء الحكماء قليلون . ولذلك تبرز أيام الطفولة بروزاً مؤلماً عند جميع المرضى . والطبيب المعالج يحاول أن يثير عند المريض ذكرياتها . فنحن نعيش في مجتمع كثير الصعوبات . فإذا اصطدمنا بصعوبة ونحن في سن العشرين أو الثلاثين مثلا فإننا نثير ، من حيث لا ندري ، صعوبة أخرى مماثلة لما اصطدمنا بها أيام الطفولة

فيكون الخوف ، أى خوف الاطفال المرعب ، مع أننا قد نكون في سن العشرين أو الثلاثين . ومع هذا الخوف لاندرى أصله أو مأتاه

أن سلوكنا العام فى المجتمع ينبعث من عواطفنا. ولكن عندمانكون أصحاء سويين نكيف هذه العواطف ونراقبها ونوجهها

وهناك عواطف كامنة فى النفس ، معظمها من أيام الطفولة تحركنا نحو اتجاهات وتثير فينا انفعالات يعجز العقل أحياناً عن التسلط عليها وعندئذ يحدث المرض . أى عواطف وانفعالات بلا عقل . فنحس خوفاًأو قلقاً أو رغبة فى الانتحار أو اشمئزازاً أو شذوذاً جنسياًأو غيرة لا تطاق . أو نحو ذلك

وإذا كانت هذه الانفعالات والعواطف قوية طاغية فإننا نفر إلى راحة السكر بالخمر . وأحيانا قد ننتهى منها بأن نلجأ إلى الجنون ، إذ هو الراحة الكبرى التى تطرد الهموم نهائــيــاً . ولكنها راحة الموت النفسى

كيف نعالج هذه الأحوال :

للأطباء النفسيين علاجان : أحـــدهما سريع سطحى وهو « التنويم النفسى » الذى لا يزيد على أن يكون إيحاء مركزاً . كأن نوحى للمريض الخائف بأنه ليس خائفاً ، أى أنه شجاع جرىء . والنتيجة هنا سريعة ولكنها غير ثابتة . إذ قد يعود هذا الخوف كما كان أو بصورة أخرى

والعلاج الثانى هو « التحليل النفسى » . وهو أسلوب بطىء النتيجة ولكن الشفاء يثبت . وهو يستهلك من الوقت والمال شيئاً كثيراً .

ولذلك لا يستطيعه سوى الأثرياء أو المتوسطين الميسورين . والنظرية التي يقوم عليها التحليل النفسي أن هناك عواطف مختبئة أو مكظومة لا يعرفها المريض نفسه . وأننا نستطيع أن نثيرها بالحديث معه حتى يتذكرها ويعرف أسبابها وظروفها . وهو متى عرف الأسباب والظروف شفي ، لأنه يسلط عقله على ما كان قد نسيه من هذه العواطف والاحساسات والانفعالات .

وعندي أن لكلمات اللغة أكبر قيمة في التحليل النفسي . لأننا نرفع بها المريض إلى مستوى جديد من الحكمة والفلسفة ونكسبه بصيرة في الحياة . بل نحن أحيانا نجعله يقف موقفاً جديداً من الحياة فنغير شخصيته ونكاد نحيله إنساناً آخر غير ما كان يعرف به نفسه

التحليل النفسي هو : كيف نجعل المريض يعالج نفسه بعد أن عرف داءه الدفين ؟. كيف نجعله [illegible]يا يجابه صعوبات الدنيا ، في ضوء ما لقيه من صعوبات الطفولة ، ثم صعوبات المجتمع ، كما لو كان فيلسوفاً ؟

وإذن من هو الشخص الجدير بمعالجة الأمراض النفسية

أرجو أن أصرح ، في وجه المعارضة المنتظرة ، بأني رجل مادي مائة في المائة . وأن كل ما نسميه مرضاً نفسياً إنما يعود إلى تغيرات داخل أجسامنا ، أي إلى مادة . ولكننا نجهل هذه التغيرات في الوقت الحاضر ، كما نجهل الأسباب الجسمية لها . واعتقادي أن هذه الأسباب سوف تعرف بعد عشرين أو ثلاثين سنة

بل نحن بصر من الآن بعض هذه الأسباب . فإن صدمة الموقف قد تحدث التهابات فى الجلد أو قرحة فى القناة الهضمية أو إسهالاً أو زيادة أو المرض السكرى أو ضغطاً عالياً فى الدم . ومعنى هذا أن هنالك كيمياء يعرفها الجسم وقت المرض النفسى . وعندما نفهم هذه الكيمياء سنفهم أيضاً حركة النفس فى الجسم

ولكن إلى أن نصل إلى هذه التفسيرات الجسمية نحتاج إلى العلاجات النفسية . أى التنويم النفسى والتحليل النفسى ثم التأليف النفسى . وأقل ما يقال هنا أننا وجدنا الشفاء عند استعمالها

ان الأمراض النفسية أو العقلية إنما تنشأ من العلاقات العائلية فى السنوات الأربع أو الخمس الأولى من أعمارنا ، أى كيف عاملنا أبوانا وإخواننا والخدم . وماذا كانت احساساتنا وانفعالاتنا نحوهم . وهل وجدنا عندهم الحب أو الكراهية والعناية أو الإهمال والطمأنينة أو الخوف . فإن كل هذه العواطف سيتردد صداها بعد عشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر

والأمراض النفسية تنشأ أيضاً من علاقاتنا الاجتماعية ، أى مقدار الطموح الذى يبعثنا على السعى ، ومقدار الكظوم التى نلقاها للتأخر فى الزواج أو التخلف عن النجاح . وما هى الاصطدامات الاجتماعية التى تصادفنا . . الخ

إن المرض النفسى أو العقلى هو مرض العلاقات العائلية والاجتماعية ، ويمكن لذلك أن نسمى الأمراض النفسية أمراضاً اجتماعية

أما المرض الجسمي فهو مرض البكتريا والفيروس ونقص الفيتامينات والأملاح

قد يقول لي هنا أحد أطباء الأجسام : لا تنس الغدد الصماء

نعم . لا أنساها ولكننا لانعرف عنها كثيراً . وقصارى ماوصلنا اليه أننا خدشنا سطوحها . والى أن نعرفها سيبقى التنويم والتحليل معتمدينا الوحيدين في علاج النفوس المهبوطة

وإذن من يمارس الطب النفسي

يمارسه أي انسان قد درس الطب النفسي . ولا عبرة بأن يكون قد درس قبل ذلك طب الأجسام أو علم الاجتماع ، أو الفلسفة ، أو الآداب . فإنه يجب قبل كل شيء أن يكون قد درس علم النفس أي السيكولوجية ، واختص منها بفرع العلاج النفسي

وفرويد نفسه ، أبو التحليل النفسي ، هو الذي أوصانا بذلك

وأطباء النفس في الولايات المتحدة قد يكونون أطباء جسم أو لا يكونون . وكذلك الحال في انجلترا . ولكن يجب وجوباً قاطعاً على من يعالج بالتحليل أو التنويم أن يكون على دراية وعلم بفنه

وإذا كنا نخشى أن يتفشى بيننا الدجالون ، فإن من السهل أن نتوقى ذلك بأن نطالب جامعاتنا بتخصيص دراسات للمعالجة النفسية ، يحصل دارسوها بعد المدة المقررة للدراسة على دبلومات ترخص لهم هذه المعالجة

نحن نفكر بأفواهنا

هذا مقال فى الفلسفة ، أو فى السيكولوجية ، اذا شئت ، ولكنه مع ذلك ليس ألغازاً لأنى واثق أن كل من يقرأه سيفهمه

وعنوان المقال « نحن نفكر بأفواهنا » قد نقلناه عن تريستان تازارا . ومعناه اننا نفكر بالكلمات التى تنطق بها ألسنتنا . واذا لم تكن لنا كلمات نفكر بها فاننا عندئذ لن نستطيع التفكير الا بمقدار ما يفكر الثور أو الجمل

فقد انتهى المفكرون المتعمقون الى أن الناس والأشياء والطبيعة والكون ليس لها أى معنى أو مغزى الا فى وجداننا وكلماتنا

والمعنى من عبارة « وجداننا » هو كيف أجد نفسى فى هذه الأشياء ؟ !

ماهى صلتى بها ؟.ماقيمتها عندى ؟.ما هى أبعادى منها أو أبعادها منى ؟.كيف أفهمها ؟

الاعتقاد العام بين الناس أننا نعبر عن أفكارنا بالكلمات ، كأن اللغة وسيلة للتعبير عن التفكير

ولكن اللغة أكبر من ذلك . فإنها عند كثير من الناس كل التفكير الذي يفكرونه ، وعندنا جميعاً هي التي تكيف التفكير وتكسبه طرازه وشكله . بل أحيانا توجده

ونمونا الفكري وتطوره هما نمو اللغة وتطورها

ونحن نعين سلوكنا مع الناس في صور أخلاقية ، مثل المروءة، الإنسانية ، الحب ، البغض ، الشماتة . وهي جميعها صور تثير عواطفنا وتوجهنا وتكيف إحساسنا وتصرفنا ، واذا فقدنا هذه الكلمات فإننا نفقد أيضاً هذه العواطف والاحساسات ولا يبقى الا مقدار ما يجد نور أو جمل منها

وكذلك الصور الذهنية ، مثل السياسة ، الدبلوماسية ، الثقافة . التطور ، العلم ، فإننا ما كنا لنجد هذه الصور في أذهاننا لولا هذه الكلمات

إننا نقول : أمس وغد ، ورجل شهم ورجل نذل ، وحنان الأم وعقوق الابن ، وجميع هذه المعاني نفقدها لولا هذه الكلمات التي تعينها وتربط أذهاننا بها

بل إن للكلمات أكثر من التعيين والربط، اذ هي تصوغ وتكيف. بل هي تستحدث في نفوسنا عواطف وعادات عاطفية ما كنا نجدها لولاها . فإن كتاب القصص عندنا قد جعلوا عاطفة الحب شيئاً مألوفاً ، بل هم صاغوا أسلوب الحب ، وذلك بما ألفوا من هذه القصص التي شرحوا فيها ، بكلمات معينة ، هذا الأسلوب

وقد تعترض بان الحب كان موجوداً من تأليف القصص . وهذا صحيح ، وان يكن وجوده وقتئذ شيئاً يكاد يكون شاذاً مخجلا . وكلمة الحب كانت من كلماتنا قبل تأليف القصص العصرية . ولكن الكلمة شاعت في أيامنا وأثارت عاطفة كانت راكدة كامنة . كما عينت لنا هذه القصص صيغة الحب كيف يكون وكيف يسلك المحبان

وقد سبق لى أن قلت إن كلمات الدم والعرض والثأر قد عينت أسلوباً من الاغتيال والقتل فى بعض مديريات الصعيد الأعلى . وأن جرائم القتل والاغتيال هذه كان يمكن أن تنتقص ، بل تزول ، لو أن هذه الكلمات كانت قد محيت من لغة السكان فى قنا وسوهاج

وهناك من يزعمون أن اللغة مرآة للافكار ، ولكن الواقع أنها أكبر وأخطر من ذلك . اذ هى من ناحية صياغة للأفكار ، وهى من ناحية أخرى تفسير للافكار . فكلمة الحب الآن تفسر عاطفة كانت موجودة قبل مائة أو ألف سنة فى مصر . ولكن التفسير تغير . ولذلك تغير أسلوب الحب . والفضل فى هذا لكتاب القصص

أسلوبنا فى التفكير هو فى صميمه أسلوبنا فى التعبير . لأننا لن نستطيع أن نفكر بأكثر مما تعطينا الكلمات من معان . وعلى قدر النقص فى معانى الكلمات يكون النقص فى تفكيرنا

كيف نفكر ؟

عندما نتأمل طفلا لم يتعلم اللغة بعد نجد أنه يعبر (أى يفكر) بأصوات وحركات نفهم منها حالته . فنسمع صوتاً يدل على حركة

فى حنجرته وتجد تعبيراً فى وجهه ورفسات من قدميه وإشارات بيديه

هذه هى لغتنا الأولى . أى هذا هو تفكيرنا الأول . فإذا كبرنا تكلمنا ، أى اقتصرنا على حركتى الحنجرة واللسان وتركنا حركات الأيدى والأقدام . ولكن حركاتنا اللغوية هذه نتعلمها من الكبار ولا نخترعها . ولذلك على قدر مافى الكلمات التى ننطق بها ، بحركات اللسان والحنجرة ، يكون تفكيرنا

وبهذه الحركات ، بهذه الكلمات ، قد أصبحت لنا ثقافة ، أى نحو عشرة آلاف أو عشرين ألف كلمة (حركة فى الحنجرة واللسان) صرنا نفهم بها الدنيا والحياة . ولكن هذه الكلمات أيضاً قد حبستنا فى نطاق لا نخرج منه ، إذ صاغت لنا الفكرة وبعثت لنا العاطفة وكيفت الاثنتين

ولذلك قال ويتجشتين : « حدود لغتى هى حدود عالمى »

أنا أتكلم لثلاث غايات :

الأولى : أن أتفاهم مع الآخرين بالحديث

الثانية : أن أتفاهم مع نفسى حين أخلو وأقول إنى أفكر . والحقيقة أننى أستحضر الكلمات التى تعين تفكيرى وتصوغ إحساسى

والغاية الثالثة : هى ان اللغة تعين موقفى من الناس والأشياء والدنيا والكون . وهى هنا فلسفة وعلم وأدب وفلكيات وطبيعيات الخ . واللغة هنا تزيد وجدانى ، أى كيف أجد نفسى فى كل هذه الأشياء .

أى كيف يزداد وجودى فى إحساسى وفكرى وتعقلى

إن جوليان هكسلى يقول: إن تطور الإنسان قد وقف بسبب اللغة، ويكاد يكون صادقاً

ذلك أن الزواحف حين شرع بعضها يجرب الوثوب فى الهواء كى يأكل الفراش الطائر صار جلدها حول أجسامها ينبت ريشاً فصارت طيوراً

ولكننا نحن لن نطير . لأننا بما عندنا من ثقافة (أى كلمات) قد عرفنا كيف نطير بالحديد والنار . فالثقافة البشرية ، أى اللغة البشرية ، قد قامت مقام التطور العضوى فى أجسامنا . فلن تكون لنا أجنحة

وكذلك لن نستطيع الإقامة فى البحار كما فعلت القياطس والسلاحف بأنواعها . لأننا بثقافتنا الخاصة بصنع السفن قد استغنينا عن ذلك

فالارتقاء الثقافى، أى اللغوى، قد عاق وسوف يعوق التطور العضوى. ولكنى اعتقد مع ذلك أن كبر المخ فى الإنسان يعود إلى اللغة ، لأن هذا العضو احتاج إلى أن يكبر كى يحتفظ بالصور العديدة التى أوجدتها الكلمات : فالتطور الجسمى قد أوقف ولكن التطور المخى لن يقف

من أحسن ما فى سارتر ، صاحب الوجودية ، عنايته باللغة ومواصلة البحث فى ممكناتها . فهو يقول إن صناعة الكاتب هى الكلمات أى الأفكار . وهو أيضاً يقول : « أنا لا أثق بما لا يمكن التعبير عنه » . وهو يعنى أننا ما دمنا نعجز عن التعبير فاننا نعجز عن التفكير

ولكن أحسن ما قاله سارتر عن اللغة هو هذه الكلمات التالية التى أضعها أنا فى صيغة السؤال :

« هل نحن نتغير ثم نجر اللغة خلفنا ونغيرها ، أم أننا نحس وجداناً لغوياً جديداً يجعلنا نرى الدنيا على غير ما كانت عليه قبلا فنتغير ؟ »

واعتقادى أن هذا هو سؤال القرن العشرين فى الفلسفة . وإجابتى عليه ، وهى إجابة تجريبية وقتية ، هى أن التفاعل اللغوى من المؤلفين الجديدين يضفى على الكلمات القديمة معانى جديدة . ثم تعود هذه الكلمات بمعانيها الجديدة فتحدث طرزاً جديدة فى الفكر والعاطفة فيكون التجدد الاجتماعى أو الثقافى

وبكلمة أخرى نحن نجر اللغة . وهى أيضاً تجرنا

ولكن إذا سلمنا بهذا فإننا نحتاج إلى أن نعالج حياتنا ومجتمعنا وفلسفتنا وأخلاقنا من الكلمات المريضة التى تحدث لنا طرزاً مريضة من الأخلاق والاجتماع والحياة والفلسفة

اللغة أعظم أدواتنا الإجتماعية

أعتقد أن أعظم ما سوف يشغل الفلاسفة في السنين القريبة القادمة هو اللغة ، وأن الكتب ستؤلف بالمئات عن قيمة الكلمات في الأخلاق والتوجيه الاجتماعي والتفكير المنظم

وأعتقد أيضاً أن تطورنا القادم ، الذي سوف نسيطر عليه ولا نتركه للطبيعة ، سيتناول اللغة باعتبارها الوسط الإجتماعي الأول والأخطر في حياة الإنسان . وأن الوقت ليس بعيداً حين تسن الحكومات قوانين تلغي بها بعض الكلمات التي تبعث على الجريمة والزيغ الأخلاقي باعتبار أن هذه الكلمات هي علة الجريمة أو الزيغ

وقد التفت السيكلوجيون إلى اللغة. ولكنهم لم يستوفوا كل ما فيها من خطورة اجتماعية وذهنية وأخلاقية

وأنا هنا أومىء أكثر مما أعبر. وذلك كي أستوعب في إيجاز بدلا من أن أتخصص في إسهاب

وأول ما أومىء إليه أن الأستاذ محمود تيمور ألف درامة بلغتين إحداهما العربية الفصحى ، والثانية العربية العامية ، وجمعهما في مجلد واحد كما لو كانت إحداهما ترجمة الأخرى

وهو بهذا العمل قد كشف عن مرض اجتماعى أصيل فى بيئتنا العربية . لأن كلمات اللغة أفكار . وحين تكون لنا كلمتان فان معنى هذا أن لنا فكرتين . أى أن لنا طبقتين لكل منهما أفكارها وأخلاقها وأسلوب عيشها

وهذا دمار فى مجتمعنا . ويجب أن نحاكم المسئولين عن هذا الدمار الفكرى والأخلاقى والاجتماعى . كما يجب أن نبادر بعلاجه

والمسئولون هنا هم أولئك الذين لا يزالون ينأون عن الشعب ويربأون بالأدب أن يكون شعبياً . لأن الشعب عندهم هو العامة . وهم من الخاصة . فيجب أن تكون لهم لغة خاصة وأن يكون للشعب لغة العامة

نحن المصريون عند هؤلاء أمتان : أمة متعلمة تتذوق الآداب والفنون ولها لغة راقية تؤدى التعبير عنها . وأمة أخرى جاهلة جافة لا تتذوق الآداب والفنون ويجب لذلك أن نكتب لها ، إذا كتبنا ، بلغتنا العامية الجاهلة الجافة

فأى منطق هذا يا ناس ؟ وفى أى بلد ، غير مصر ، توجد مثل هذه الظاهرة ؟

أليس الأحرى بالأديب أن يكتب بالكلمة السهلة والأسلوب الميسر اللذين يفهمهما الشعب ؟ وأليس هدف الديموقراطية فى الحكم يجب أن يقابله هدف الأديب فى الديمقراطية فى الأدب ؟

إن حكومتنا تسن قوانينها بلغة واحدة للشعب كله . وهى لم تر حاجة قط لأن تترجمها إلى اللغة العامية كما فعل الأستاذ تيمور فى قصته

فلماذا لانكتب بلغة ميسرة مفهومة للشعب كله

إننا فى داء . فلنسأل من هم أصل الداء، ولنحا كمهم. ثم يكون الدواء

جاء فى مجلة «التربية الحديثة» التى تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة هذه الكلمات المنيرة :

« أول هذه التطورات هو التحول من اعتبار النفس البشرية مخلوقاً مستقلا منفصلا منعزلا، إلى اعتباره كائناً اجتماعياً قد كونته صلاته الاجتماعية وخصته بهذه الوظيفة . والثانى هو التحول من اعتباره كائناً ثابتاً تام التكوين إلى اعتباره كائناً ينمو ويتحرك ويتفاعل ويتطور . والثالث هو التحول من النظرة الساذجة التى تعتبر اللغة وسيلة مستقلة لنقل المعانى إلى اعتبارها وظيفة من وظائف التكوين والتفاعل الاجتماعى »

ولو كنت وزيراً للمعارف لأصدرت « أمراً يومياً » لجميع المعلمين فى مصر به هذه الكلمات العظيمة التى كتبتها هذه المجلة :

١ - ليس الانسان مستقلا كما يقول سارتر وإنما هو مكون ومؤلف بصلاته الإجتماعية

٢ - الإنسان ليس كائناً ثابتاً وإنما هو متطور متفاعل

٣ - ليست اللغة لنقل المعانى فقط وإنما هى أيضاً للتفاعل الاجتماعى

* * *

كما نستعمل نحن الكلمات ونتسلط عليها كذلك الكلمات تستعملنا وتتسلط علينا . بل هى تستعملنا أكثر مما نستعملها نحن

نحن لا نفكر بالأفكار وإنما نفكر بالكلمات

ونحن لانخترع كلمات اللغة بل نرثها من مجتمعنا

ونحن مقيدون فى تفكيرنا ، وموجهون به ، بما تحمل هذه الكلمات من المعانى

وصحيح أننا أحيانا نخترع الكلمات ، كما هو الشأن فى العلوم والفنون ، ولكن هذا قليل جداً بالمقارنة إلى ما نرث . ثم نحن نخترع الكلمات كى نعين بها ونوضح بها المعانى المضطربة فى أذهاننا

لأن الفكرة تبقى مضطربة غامضة مشتبهة حتى نصوغها فى كلمة ، فتتعين لها حدود ويتضح لها معنى

ولن يستطيع أحد أن يفكر بلا كلمات إلا إذا استعان على ذلك بعلامات الخرس ... ولذلك يسمى علم اللغة الجديد علم العلامات أى « السيمائية » . لأن كلمة سيما تعنى علامة

لقد كبرت عقولنا باللغة .. بالكلمات

والفرق الأساسى بيننا وبين الشمبنزى ، ليس أن مخنا أكبر من مخه ، بل لأننا ننطق ولنا لغة . وهو أخرس ليست له لغة

بل أعتقد أن مخنا أكبر من أمخاخ الشمبنزى وغيره من الحيوانات لأن لنا لغة وليست لها لغة

المخ البشرى كبير نتيجة اللغة . وليس العكس

فكما أن عنق الجمل طالت كى يصل إلى العشب كذلك كبر مخنا كى يحتوى معانى الكلمات . إذ ما الذى كان يبعث على كبر المخ فى الانسان سوى حاجته إلى استيعاب وتسجيل وتقليب المعانى ؟

الوظيفة تسبق العضو

وظيفة التعبير ، اللغة ، أوجدت المخ

وتطورنا القادم سوف يكون لغوياً مخياً ، أى أن المخ سيكبر.

اللغة أعظم أدواتنا الإجتماعية . وهى أخطر فى حياتنا من جميع المؤسسات الأخرى ، مثل العائلة أو الدولة أو القوة المادية أو أى شىء آخــــر.

بل ماذا أقول ؟

ان جميع هذه الأشياء ، العائلة والدولة والقوة المادية ، هى ثمرة اللغة

لقد اخترعنا كلمات العائلة والبرلمان والمجتمع كى نوجد الأفكار التى تدل عليها

وما يعانيه الشعب من قلق اجتماعى منبه بشأن الطلاق والزواج وتعدد الزوجات وتربية الأطفال إنما يرجع إلى أن كلمة « عائلة » قد اندست فى وجدانه وصارت جزءاً من كيانه النفسى . وهى من مخترعاتنا. ولذلك لاتجد لها أصلا فى أى معجم عربى

ولكن مع القيمة العظمى للغة ، أى للكلمات ، فاننا يجب أن نتنبه إلى شيئين هما عيبان عقليان :

١ - الأول أننا أحيانا ، بل كثيراً ، نسمى الشىء ونخترع الكلمة لاتدل على حقيقة هذا الشىء وإنما لتدل على احساسنا نحن نحوه وما نكسبه من هذا الشىء من قيمة فيما يتعلق بحياتنا . ولهذا السبب كثيراً ما نتعرف إلى الأشياء، بالعقيدة وليس بالمعرفة . فالبياض طهارة، والبومة شؤم، و موجات الضوء ألوان... الخ

٢ - والثانى أننا حين نتأمل الأشياء فى هذه الدنيا أو هذا الكون،

إنما نفعل ذلك ونحن نجمد هذه الأشياء أى نقفها عن تدفقها. وبهذا التجميد تتغير حقيقتها فى عقولنا

ولا يمكن أن تدل الكلمات ، أى الأسماء ، على أشياء إلا بعد تجميد هذه الأشياء

ولذلك نحن لا نفهم الأشياء على حقيقتها ، أى على تدفقها وتطورها، ولكننا نفهمها ثابتة مجمدة على غير حقيقتها

وعلم السمانية هو العلم الجديد الذى يحاول الكشف عن الأخطاء التى نقع فيها لأن الكلمات لا تنقل الينا الصورة الحقيقية للاشياء

كل شىء فى هذا الكون فى تدفق

وكى تكون اللغة خادمة أمينة للمجتمع والانسان يجب أن تكون هى أيضاً فى تدفق أى فى تطور

للكاتب الفرنسى لافارج رسالة عنوانها « اللغة والثورة » وصف فيها التطورات التى مرت فى اللغة الفرنسية فيما بين ١٧٨٩ و ١٧٩٤ أيام الثورة

ذلك أنه اخترعت كلمات جديدة لتأدية المعانى الجديدة فى الثورة الفرنسية الكبرى . كما أن كلمات قديمة كانت تعبر عن النظام الاقطاعى قد أميتت

وفى الثورات تظهر الكلمات الجديدة على قدر التطورات

واللغة هى أداة الانتاج الذهنى والتغيرات الاجتماعية

اللغة هى الوجدان الفكرى للامة ، ونحن نبقى فى ذهول فكرى إلى

أن يعين أفكارنا بالكلمات

ألا تعرف أنه عندما يضطرب أحد الشبان وتختلط عليه احساساته وأفكاره ويجد الشبهات والمخاوف نطلب اليه أن يعين كل ذلك باللغة؟. أى نطلب اليه أن يكتب ويوضح بالكلمات جميع احساساته وأفكاره. وقد يكون فى عمله هذا كل الدواء الذى يحتاجه أو معظمه

كذلك نحن فى اضطراب الثورات نحتاج إلى من يعين لنا، باللغة، اتجاهاتنا ويقشع عنا ضباب المخاوف والاشتباهات

أين لافارج المصرى الذى يؤلف لنا رسالة عن « اللغة والثورة » ؟

ماذام هناك تغير وتطور قد أحدثته الثورة فيجب أن تكون هناك كلمات جديدة توجه وتسجل وتنير

* * *

فى الخمسين أو الستين سنة الماضية اخترعنا كلمات غيرت مجتمعنا وأخلاقنا

وقد أشرت إلى كلمة «عائلة» التى نقلناها بها معنى أوربيا يقلقل مجتمعنا ويجعلنا نتحدث ونطالب بالإصلاح فى شؤون الزواج والطلاق والنفقة وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ...الخ

أنها كلمة تقلقنا قلقاً مقدساً

وإلى جنب هذه الكلمة اخترعنا كلمات : مجتمع ، وصحافة ، وتطور ، وحكومة ، ونقابة ، وثقافة ، واستقلال ، وبرلمان ، وعلم ، وشخصية ، ووجدان . . . الخ

وقد سبق لقاسم أمين أن أوجد كلمات «سفور» و «حرية المرأة» فصارت الكلمات حقائق

وبعض هذه الكلمات عربي قديم ولكننا أكسبناه معاني جديدة

وبعضها مخترع

وقد أكسبتنا هذه الكلمات حياة ذهنية جديدة وأخلاقاً جديدة. أي أعطتنا «وجهة نظر» جديدة للكون حتى لأكاد أقول إنها زادت ذكاءنا

ومهمتنا نحن المفكرين والأدباء والعلماء اختراع كلمات جديدة تحمل شحنات اجتماعية عن النهضة والتمدن والفكر تجعل شعبنا يحيا الحياة العصرية ويكتسب «وجهة نظر» جديدة للانسان والمجتمع والكون

الكتب العظيمة التى تربينا

لاينقص عدد الخطابات التى وصلت إلى منذ أقل من عام بشأن الكتب التى يجب أن يقرأها شبابنا ويستنيروا بها عن مائة خطاب .

وجميع هؤلاء المراسلين شبان . فانهم جميعاً يصفون تعليمهم السابق، ثم يبرزون ما يحسون به من نقص ، ويسألون عن العلاج . وهم جميعاً يذكرون أعمارهم كأنهم يرجون أن يهتدوا الى برنامج ثقافى للسنين القادمة من حياتهم .

وهذه الحال تدل على زعزعة نفسية قد أحدثت قلقاً وتساؤلا واستطلاعاً . ومصدر هذه الزعزعة هو هذا التناقض القائم بين أسلوب العيش الذى نتبعه فى مجتمعنا وبين ماتعلمناه وأخذنا به من عادات ذهنية قد أورثتنا أياها ثقافات كثيراً ما تحدث لنا الحرج والبلبلة .

ومن هنا هذه الرغبة الحادة فى بعض الشبان حين يسألون : ماذا نقرأ ؟. أى كيف نستقر ونهدأ ؟. كيف نجعل عاداتنا الذهنية توائم أسلوب عيشنا ؟

وفى كل انسان سليم النفس طاقة تطورية . وهى تحتاج إلى الغذاء المنظم بالكتب العظيمة والاختبارات العالية ومباشرة الطبيعة بالسؤال الحر والجواب الحر والاستعداد للتغير والارتقاء

ولكن النفس البشرية كثيراً ماتمرض فتجمد وتجحد التطور . أى تجحد الحياة وتنتحر

وحال شبابنا فى مصر ، فى زعزعتهم وبلبلتهم ، لا تختلف كثيراً عن حال الشباب فى أمريكا . وإن كان المستوى يختلف

فى مصر نجد حضارة غربية تطورية تكتسح أو تسود حضارتنا الموروثة أفكاراً وأشياء ، كما نجد معارف تصطدم بعقائد . فنتبلبل . وأحيانا نحتمى من هذا الاكتساح أو السيادة بأن نختصم الغربيين فندعو إلى القناعة وننكمش فى محارنا أو قواقعنا . أو نكبر من شأن حضارتنا ، وهى الفلاحة ، فنقول إنها روحية . أو نقول إننا شرقيون وهم غربيون . وكأننا قد فصلنا النوع البشرى قسمين

وفى أمريكا يجد الشباب مشكلة قريبة فى موقفها من مشكلتنا ، ولكنها لا تطابقها . فهناك يبدو التناقض واضحاً بين العيش والفكر . وقد لا يدرى القارىء المصرى أن الأمريكيين يعيشون، من حيث المواد والإنتاج ، فى القرن الحادى والعشرين . فإن الأمريكى ، فى المتوسط، يتسلط على قوة لا تنقص عن خمسين أو ستين حصاناً يوجهها للانتاج المادى فى بناء منزل أو طائرة أو سيارة أو إنتاج زراعى أو صناعى

ولكنه من حيث الثقافة لا يختلف عن غيره فى أقطار العالم الأخرى.

ومن هنا هذا التناقض الذى يحدث عنده البلبلة والزعزعة والتساؤل : ماذا أقرأ كى أفهم وأهدأ ؟ أى ماذا أفعل كى أجعل أفكارى تلائم الحضارة التى أعيش فيها ؟

ومن هنا أيضاً هذا الاهتمام الذى يقارب الهم باختيار الكتب فى الولايات المتحدة . فقبل أكثر من ستين سنة أوصى الدكتور اليوت بطبع مائة مجلد زعم أنها تكفل للانسان العصرى بأن يكون مثقفاً ، وبعض هذه المجلدات يحتوى على عدة كتب.

وقبل نحو خمس عشرة سنة نبعت فى جامعة شيكاغو ظاهرة ثقافية جديدة فى شخص الأستاذ هتشنس ، فإنه جعل « الكتاب » أساس المناقشة الحرة بغية التثقيف العالى . ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً حمل الجامعات الأخرى على اتباع خطته . ووضع هو وأعوانه أسماء لنحو مائة كتاب قيل إنها تكفل للقارىء أن يكون إنساناً راشداً ناضج الذهن ، ولكن خطة هتشنس كانت تحتوى نظرة ونبرة

فأما النظرة فهى قيمة الكتاب فى تخريج الرجل المثقف، وأن الجامعات كانت قد أهملت هذا العامل الأول فى التربية الذهنية ، فيجب أن تعود اليه

وأما النبرة فهى كيف ندرس الكتاب ؟

ومن هنا كانت المناقشات الحرة بين جماعة من الطلبة يحاولون استخراج العبرة والدلالة من الكتب فى الحضارة العصرية ، وأسلوب العيش ، ونظام المجتمع ، واستقلال الذهن وحرية الضمير

ولكن الحضارة الأمريكية تتغير فى موادها وانتاجها ، كيفا وكما ، بسرعة تحتاج الى اعادة النظر فى النظرة والنبرة مرة على الأقل كل عشر سنوات

والمحقق أن الأمراض النفسية كثيرة فى الولايات المتحدة . والذى لا شك فيه أن بعض هذه الكثرة تعزى الى التناقض بين الثقافة ، أى ما نفكر فيه ، وبين الحضارة ، أى ما نعيش عليه من عائلة ومجتمع ومصنع ومزرعة ومكتب

وهذا الاختلاف الذى يكاد لا ينقطع بين الأمس واليوم فى طرق العيش يحمل الأمريكى على أن يبحث عن مراس جديدة غير مراسيه القديمة ، وهو ينشدها فى « الكتاب »

ماذا يجب أن يقرأ ؟ وأن يعرف ؟ وأن يعتقد ؟

وأسوأ ما يلاقيه الشاب الأمريكى أنه يجد أن عقائده تناقض معارفه . وأسوأ من هذا أيضاً أن يقول المشرفون على ثقافته الباحثون عن المراسى ، « أن العقيدة أروح ولكن القلق أشرف » كما هى كلمات برتراند راسل

أليس هناك ، فى الولايات المتحدة ، من الأسرة لمرضى النفس فى المستشفيات ما يزيد على الأسرة لمرضى الجسم ؟

الشك ، القلق ، الهم ، النيوروز ..

ليس هناك عقائد يرتاحون إليها

وإذن أين « الكتاب » الذى يقرأه الشاب حتى لا يحتاج الى سرير فى مستشفى الأمراض العقلية ؟ أين الكتاب الذى يصالح بين عقله وقلبه ؟

وهنا يشب علينا مشروع جديد ، هو محاولة جديدة لإيجاد الطمأنينة الذهنية باختيار الكتب

ويتقدم الينا هتشنس الذى كان قد بعث الكتاب فى جامعة شيكاغو وتتقدم الينا هيئة التحرير لأعظم كتاب ظهر فى العالم وهو «الموسوعة البريطانية» التى تحوى المعارف البشرية ، ويعاونهم جميعهم هيئات وأفراد بغية تعيين الكتب التى يجب أن نقرأها كى نطمئن

ماذا أقول ؟

كى نطمئن أم كى نقلق ؟

هل يرضى الرجل المثقف أن ينزل عن قلقه الذى يثير استطلاعه؟

واجتمع هؤلاء جميعا إلى السنة الماضية واختاروا ٥٤ مجلداً تحوى ٧٤ مؤلفا ، لأن بعض المجلدات يحوى كتابين أو ربما ثلاثة كتب وطبعت هـــذه الكتب طبعاً ليس فاخراً ولكنه متقن ، لأن الثقافة ليست ترفا وإنما هى ضرورة . ويبلغ ثمن هذه المجموعة ١٢٠ جنيهاً

هل هذا كثير ؟

إننا نقدر سعادتنا بالدخل المالى . فلماذا لا نزيد عليه دخلا آخر هو الدخل الذهنى ؟

ارتقاء أذهاننا بالقلق أحيانا . وبالطمأنينة أحيانا أخرى. وبزيادة الوجدان والتعقل . وبتربية شخصيتنا حتى نحس أننا فى تطور وارتقاء واستقلال ونضج

لا . ليس المبلغ كبيراً على القادرين . ولو كانت هناك حكومات ديمقراطية حقا لأتاحت للعاجزين اقتناء هذه الكتب بعشر هذا الثمن أو بلا ثمن

إن ثمن « الموسوعة البريطانية » سبعون جنيها . وقد اقترحت في كلمة سابقـــة ترجمتها إلى لغتنا حتى تحدث نهضة أصيلة وحتى يستحيل « الشرق العربي » إلى « الغرب العربي » . ولـكن أحداً لم يقدر اقتراحي هذا

ولنعد إلى المشروع الجديد

قلت إن الذى يبعث على القلق عند الشاب الأميركى هو التناقض بين ما يفكر فيه ، أي ما اكتسب من ثقافة ، وبين ما يعيش به ، أى ما يكتنفه ويلابسه من حضارة

ولذلك فإن المشروع الجديد يهدف إلى التوفيق بين الثقافة والحضارة . فكيف يكون هذا ؟

هذه الحضارة الأميركية تقوم على العلم والصناعة

وإذن نحن نجـــد أن من هذه المجموعة ٢٠ مجلداً فقط فى الأدب و ٥٢ مجلداً فى العلم

وهناك مجلدان اثنان للفهرست. ولـكن أى فهرست ؟

فهرست الأفكار البشرية . العائلة.الحرب.الحب.المجتمع.الاستعمار الطب.الكيمياء.... الخ

والآن ما هو موقف شبابنا من كل هذا الذى ذكرنا ؟

إنهم أيضا فى زعزعة وبلبلة وقلق. وهم يحتاجون إلى أن تذكر لهم

المؤلفات التي ينبغي أن يقرؤها كي يجدوا التوفيق الذي يهدىء، والمعرفة التي تقلق وتطمئن ، والنظرة الفلسفية إلى الكون الذي عينه لنا اينشتين، والنظرة البيولوجية التي وجهنا إليها داروين ، والعلم الذي يثير و الفلسفة التي تبصر

أين هي المؤلفات التي ترشدهم إلى كل ذلك في اللغة العربية ؟ أين هو غذاء الطاقة التطورية في نفوسهم ؟

وجوابي أني لا أعرفه . لا أعرف الكتب العربية العظيمة التي يمكن أن ترشد شبابنا إلى الحياة الصالحة التي يسعدون بها أنفسهم ويسعدون بها غيرهم

هل يمكن أحدا أن يدلني عليها ؟

كيف تتعلم العبقرية

يكره عامة الناس التعليلات الطبيعية البسيطة ، ويحبون أن يروا معجزة فى رجل جاهل يشفى المرض أو رجـــل أبله يسيل لعابه يهذى بكلمات ويتكهن عن الحظوظ

وقبل أكثر من عشرين سنة كان يجول حول مقاهى القاهرة صبى أو شاب يضرب سبعة أرقام فى سبعة أرقام مثلها ويخرج الحاصل وهو واقف بلا حاجة إلى قلم وورق وكان عامة الناس يجدون فيه معجزة ويصفونه بأنه عبقرى

إن العبقرية عند هؤلاء معجزة.وكأن الشعوب كلها من تراب فى عموميتها، ولكنها من ذهب فى قلة من الرجال الأفذاذ ، فهم يفهمون أكثر ويعرفون أكثر من عامة الشعب متعاليه وجاهليه

وتعلق الناس بالمعجزات هو علة الدعوى بأن المؤلف أو المخترع أو المكتشف « عبقرى » يخالف سائر الناس ، وعلة الدعوى أيضاً بأن الأبله يشفى المرضى أو يتكهن بالمستقبل ، وهى فى أساسها رغبة فيما يخالف المألوف

بل لقد ألفت الكتب فى ماهية العبقرية وتمييزها من النبوغ . والقارىء لهذه الكتب ، إذا كان على شىء من الذكاء ، يحس بلاغة أو غفلة هؤلاء المؤلفين . فان لومبروز صاحب الرأى السخيف بشأن المجرمين « المولودين » الذين ورثوا الأجرام أو الميل الى الأجرام هو نفسه الذى ألف : « رجل العبقرية ».وجعله أيضاً وارثاً لهذه القوة الذهنية التى يعتقد عامة الناس أنها معجزة وأنها قمة لن يمكنهم أن يصلوا إليها مهما جهدوا واجتهدوا

وقد انتهينا من لومبروز بشأن الأجرام وعرفنا ، بل أيقنا ، أن الوسط الاجتماعى أو الاقتصادى السىء هو الذى يهىء للجريمة .ولكننا لم نصل بعد إلى القول بأن الوسط الاجتماعى أيضاً هو علة العبقرية . وكما نستطيع أن نعلم الصبيان كيف ينشأون مجرمين نشالين مثلا نستطيع كذلك أن نعلمهم كيف ينشأون أذكياء عباقرة

ألسنا نرى رياضيين يقومون بالمعجزات فى العدو والوثب والسباحة وحمل الاثقال والمصارعة ؟.فهل أحد منا يعزو قوتهم هذه إلى الوراثة ؟.أى إلى أنهم ولدوا أقوياء ؟

الجواب لا . لأننا نعرف أنهم دربوا حتى وصلوا إلى تفوقهم هذا . وكذلك الشأن فى العبقرية . فإنها تحيا فى وسط معين وتحتاج إلى تربية وتدريب بحيث يستطيع أن يتحمل العبقرى ذهنيا ما يستطيع أن يتحمل الرياضى جسميا

إذا كانت العبقرية تورث فإننا يجب أن نسلم أيضاً بأن الذكاء

يورث ، وبأن هناك شعوباً تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به . وعلى هذا الأساس يجب أن نبرر الاستعمار إذ هو ، في منطق دعاة الوراثة ، حكم أمة ممتازة بالذكاء لأمة لا تمتاز به . وللأولى إذن حق استغلال الثانية . أليست هي ممتازة ؟

وإذا كانت أسرة تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به فمن حق الأولى أن تستغل الثانية . وإذن عندنا ما يبرر الاستعمار ثم الاستغلال

ثم هناك بيض وسود . والبيض أذكياء والسود مغفلون . وإذن لا يجوز لأحد أن يقول بالمساواة بين الاثنين . هذا حكم الوراثة

وأنا أسلم بأن فرداً قد يمتاز من آخر بمقدار من الذكاء الموروث . ولكن هذا المقدار ليس علة العبقرية من طرف أو علة الغفلة من طرف آخر . وانما السبب الأساسي ، بل الوحيد ، للذكاء الخارق ، وللطيبة المفرطة ، وللاختراع والاكتشاف ، هو الوسط وليس الوراثة . كما أن السبب الأساسي للنبوغ في الجريمة وفي الرياضة هو الوسط ، أي البيئة التي تحمل على الاهتمام بشأن معين فيكون التفكير فيه والتدريب عليه إلى درجات التفوق

قبل نحو مائة سنة ألف جالتون كتابه « العبقرية الوراثية » . وقد زعم فيه أن الذين حكموا العالم وا كتشفوا واخترعوا وقاتلوا ونجحوا في المعارك ، إنما ترجع عبقريتهم إلى الوراثة . وبرهان ذلك عنده أننا نجد أبناء عمومتهم وخئولتهم عباقرة مثلهم مما يدل على أن للعبقرية « دماء » تجرى في عروق أفراد الأسرة

ولم أحتج إلى كثير من التفكير كي أسأل : « ولماذا لا تقول أن

واحداً منهم وصل إلى القمة ثم صار يساعد الآخرين بالمحاباة أو بالتربية على الوصول أيضا مثله ؟ .

ألسنا نعرف نحن فى مصر كيف أن أبناء العمومة والخئولة ، من قرب منهم ومن بعد ، كانوا يصلون إلى القمم فى العهود الماضية عندما كان واحد منهم وزيراً أو وكيل وزارة أو نحو ذلك ؟

وهل يمكن أن نقول إن تفوق العنصر التركى فى المناصب العالية العامة قرابة ١٥٠ سنة فى مصر على العنصر المصرى برهان على عبقرية تركية ؟

الجواب لا . وإذن ما هو السبب ؟

السبب هو البيئة .أى الوسط

وقبل نحو ستين سنة ألف رجل انكليزى ، كان قد تألمن ، كتاباً عن تفوق الجرمان بالوراثة على سائر شعوب العالم . وهو هراء ضخم

ومثل هذا الهراء الضخم نسمعه من الكتاب الجهلة عن تفوق الرجال على المرأة فى الذكاء . وقد يضحك القارىء حين يعرف أن بعض البراهين على هذا التفوق أن الرجل يخترع ويكتشف ،أما المرأة فلا

وكيف تخترع المرأة وتكتشف وهى تطبخ البامية والبطاطس وتمسح البيت كل يوم وتغسل الأطفال كل ساعة . هل هذه الأعمال تبعث على الاختراع والاكتشاف ؟

ان الرجل يكتشف ويخترع لأنه يحيا فى بيئة الصناعة والتجارة والعلم والفن والهندسة والطب . فالمجال ، أى الوسط ، يبعث على الاختراع والاكتشاف

بل الوسط يغير الطبيعة الموروثة

فإنه يحدث فى الهند أن تخطف ذئبة طفلة بشرية . ثم بدلا من أن تأكلها ترضعها ثم تصير لها أما رحيمة . وتنشأ الطفلة مع الذئاب ، فلا تمشى على قدميها وإنما على يديها وقدميها مثل الذئبة . وتستيقظ عند الغروب وتبقى ساهرة تسرق الفراخ وتعوى طول الليل ، وتأكلها نيئة بأسنانها وتنام فى النهار

وهذه الحوادث مؤكدة . وقد قرأنا عنها كثيرا ولا مجال للشك فيها

فالوسط هنا ، وسط الذئاب ، جعل الطبيعة البشرية طبيعة ذئبية .

أى غيرها

هناك أوساط بشرية تعمل للتجمد الذهنى ، كالوسط الزراعى مثلا ، فان ميدان الاكتشاف والاختراع بل ميدان التفكير فيه يكاد يكون معدوماً ، ولذلك تجد التسليم التام للقدر والحظ

أذكر أنى سألت أحد الفلاحين عن علة وفاة أحد أقربائه . فضحك منى وقال يهزأ بى : كيف مات ؟ لماذا مات ؟ مات . مكتوب عليه وعلينا الموت . مقدر علينا

ومثل هذا الموقف من القدر لا يدعو إلى بحث الموت ، أى لا يدعو إلى الاكتشاف

ولكن ساكن المدينة يتذكى ويسأل ويستفهم ولا يسلم للقدر

الوسط الزراعى أوجد النظام الاقطاعى الجامد ، والتسليم للقدر ، وكراهة التغير أو التطور ، واحترام التقاليد ، وسائر المجموعة من الأخلاق الاقطاعية التى لا يزال أكثرها ، بحكم الوسط الزراعى ، فاشياً فى بلادنا

ولكن الوسط المدنى ، وسط المدينة والمصنع والمتجر والجريدة اليومية والمناظر السينمائية والكتب ونحوها ، هذا الوسط جعل ساكن المدينة أذكى من ساكن الريف. أو بالأحرى زاد ذكاؤه حدة ويقظة فى حين جعل الوسط الزراعى ذكاء الفلاح فى نوم وغفلة . ومن هنا تفوق أوروبا الصناعية على أقطار الشرق الزراعية

وهناك ظروف تزيد ذكاءنا حدة . وتوقظنا وتقلقنا ، فنسأل ونستفهم ، ثم نفهم

فالأم التى لا تبدى ذكاء بشأن أى موضوع تفهم من حركات طفلها وإيماءاته الصغيرة ما لا نفهمه نحن . لأنها قلقة عليه مهتمة به . فذكاؤها هنا يقظ بالقلق والاهتمام

وبكلمة أخرى نقول إن الدرس الأول فى «كيف نتعلم العبقرية» هو الاهتمام

الاهتمام البالغ الذى يشبه الهوس هو الخاصة الأولى للعبقرية

وكثير من القصص الطريفة عن المخترعين والمكتشفين تدل على هذا الاهتمام الذى يغمر النفس والعقل وينسى العبقرى مواعيد غدائه أو أسماء أصدقائه، بل يكاد ينسيه كل شىء إلا موضوع دراسته وتفكيره، حتى لتعزو اليه الغفلة أو البلاهة

وهذا الاهتمام ... هو صفة ذلك الصبى أو الشاب الذى كان يضرب ٧ أرقام ... بلا حاجة الى ورق وقلم . فانه كان يجهل كل شىء فى الدنيا الا عملية الضرب هذه التى أصبح عبقرياً فيها لاهتمامه بها ، هذا الاهتمام الذى استغرق كل مجهود عقله ونفسه حتى لم يعد يبذل أى مجهود لشأن آخر فى حياته

وهناك بالطبع ظروف تزيد اهتمامنا أو تنقصه. فني أيام الأزمات حين نخشى الحرب مثلا يتضاعف بيع الصحف . أى أن الناس يقرأون أكثر مما كانوا قبل الأزمة . والقراءة تفتق ذكاءهم وتجعلهم يفكرون فى المستقبل الخاص لهم والعام للشعب والعالم

واذا شئت أيها الأب أن تزيد ذكاء ابنك حدة فاملأ دنياه الصغيرة بالاهتمامات التى تشغله واجعل له مصلحة اجتماعية أو مالية فى هذا الاهتمام ، وعلمه العديد من الهوايات التى تغمر شخصيته وتحمله على التفكير والعمل

* * *

إن معظم الاختراعات كانت هوايات تشغل فراغ المخترعين فقط . ولكنها كانت تجد منهم الاهتمام الذى يحرك الذكاء ويكاد يزيده

والريفيون لا يفكرون فى عمق لأن وسطهم لا يدعو إلى الاهتمام

والمرأة فى البيت لا تفكر فى عمق لأن وسطها لا يدعو إلى الاهتمام

والريفى يفكر فى عمق عندما ينتقل إلى المدينة حين تحرك أشياؤها المختلفة ذكاءه ، فيهتم

والمرأة تفكر حين تختلط بالمجتمع وتعمل وتنتج ، وتهتم

الدرس الثانى فى العبقرية أو الذكاء العالى أن نتعلم الحضانة

أى كما تحضن الدجاجة وترقد على بيضها حتى يتفقأ وتخرج الفراخ ، كذلك نحتاج نحن إلى أن نرقد على الفكرة التى تخطر لنا ونتركها أياما ونعود إليها من وقت لآخر . نتركها للعقل الباطن كى يعمل بخياله

وأحلامه فيها . ثم نعود إليها كي نسلط عليها العقل الواعي.أي ندرسها بعقلين

وأحياناً يؤدي المرض مثل هذه الحضانة . لأن المريض في سريره يفكر كثيراً ويحلم كثيراً . وهو يعود من وقت لآخر لأفكاره يستأنفها ولكنه لا يجترها ، وإنما يعاودها بالتنقيح

وأحياناً يؤدي الجرح النفسي إلى القلق ، فالتفكير ، فحدة الذكاء ، لأن النفس تبقى مهمومة قلقة

ومن هنا القيمة العليا التي نجدها أحياناً ، وأحياناً فقط ، لبعض الأمراض التي تقلقنا أو تلزمنا السرير

الفكرة الحسنة لن تفرخ إلا كما تفرخ البيضة . كلتاهما تحتاج إلى أن تحضن أياماً أو أسابيع

الدرس الثالث في «كيف نتعلم العبقرية» هو أن نتعود الثقافة

أي نجعل الثقافة عادة ننشأ عليها ونحن أطفال في البيت . وهذا بالطبع يجب أن يضطلع الآباء به . كما يجب أن تكون هناك كتب مغرية نحبها ونقبل على موضوعاتها منذ الطفولة فننشأ مستطلعين متسائلين مستفسرين

وميدان العلم هنا أوسع من ميدان الأدب . فإذا كانت كتب الأطفال عن هذه الدنيا تبحث وتشرح موضوعاتها العلمية في الاختراع والاكتشاف فإن الصبي ينمو نمواً عضوياً نحو الشباب ثم نحو الرجولة المكتملة يدرس ولا يطالع ويبحث ولا يسلم ويؤمن بالمنطق السيكلوجي العلمي ولا يسلم بالعقائد الموروثة

وكثير من عاداتنا ونحن فى الأربعين أو السبعين من العمر تعود إلى أننا تعودناها أيام الشباب أو الصبا . فإذا كنا نلعب الورق أو نأكل اللب أو نسرى عن همومنا بالسجاير أيام صبانا أو شبابنا فإنه مما لا شك فيه أننا سنستمر على هذه العادات حين نبلغ الستين أو السبعين من العمر .

وإذا كنا قد تعودنا الدراسة والاستطلاع فإن عاداتنا ستبقى بشأنهما إلى أن نموت ولو بلغنا المائة من العمر .

خلاصة القول أن العبقرية لا تورث ، وإنما نحن نتعود ونتدرب عليها ونحققها بظروف وبيئات معينة : أولها الإهتمام ، وثانيها الحصانة ، وثالثها العادة . فانظر أين مكانك من كل هذا ؟

الإيمان بالأرواح مرض

الإيمان بالأرواح برهان على عقـــدة نفسية تحتاج إلى العلاج السيكلوجى . وأذكر أنى دعيت قبل سنوات فى الاسكندرية إلى بيت أحد الموظفين لرؤية الأرواح التى شرعت منذ أشهر تكسر أطباق المائدة وأكواب الشراب وتلق بالأوانى النحاسية على بلاط المطبخ . وذهبت فوجدت شظايا الأطباق ، بل وجدت زهرية عظيمة لا يقل ثمنها عن سبعين جنيهاً وهى محطمة قد تناثرت أجزاؤها

وقد مات رب هذا البيت ، وكذلك ربته ، ولذلك أستطيع أن أفسر هذا التكسير فى الآتى

ذلك أننا حين نكظم غيظنا نجد أننا ننفجر فى يقظتنا فنتناول أقرب الأشياء إلينا فنقذف به ولا نبالى أن ينكسر ، وكلنا يعذر هذا الكظم ويعمل على مواساته وتهدئته

وإلى هنا لا نجد شيئاً غريباً

ولكن يحدث كثيراً أننا نكظم الغيظ ثم نضغط أنفسنا خشية النقد أو الضرر الذى يعود علينا إذا أفرجنا عما فى صدورنا بالسب أو الضرب

أو الكسر. وعندئذ يكمن الغيظ. فإذا استولى علينا النوم جاءت الأحلام لتفريج هذا الغيظ المكظوم. فنحلم بأننا نضرب خصمنا أو أننا نراه في الطين والوحل ملوثاً يمشي في هوان وذلة. وهذا الحلم يريحنا بعض الشيء.

ولكن هناك من الناس من يحلمون فينهضون ويمشون ويؤدون أعمالا على غير وجدان. أي أنهم يفعلون كل ذلك وهم في استغراق النوم. فإذا كان هناك غيظ مكتوم فإن هذا المغيظ قد ينهض في نومه ويكسر آنية البيت، يفعل كل ذلك وهو نائم فإذا استيقظ لم يذكر شيئاً

وفي الصباح يقول سكان البيت أن الأرواح قد حطمت الآنية

أذكر مثلا الزوجة التي تكره زوجها وتريد الطلاق ولكنها تجد أن المجتمع لا يقرها على ذلك، فهي مغيظة كاظمة. وهي تحلم مرة بأنها انفصلت من زوجها، وتحلم مرة أخرى بأنها تزوجت غيره وهنأت بزواجها. وتحلم مرة ثالثة هذا الحلم الذي يحركها فتنهض وتحطم الأثاث، وهو أثاث البيت الذي تكرهه، ثم تعود إلى فراشها وقد هدأت نفسها ونسيت كل شيء

فنحن هنا إزاء عقدة نفسية أدت إلى بعض التدمير المنزلي. وقد شهدت أنا بالإسكندرية، كما قلت، هذه العقدة التي ولت فصولها حين انتهت بزواج جديد وانتهى بذلك كسر الأطباق

وهذا الذي يقال عن الأرواح التي تشفي الأمراض لا يختلف كثيراً عما ذكرت. فإن المريض كاظم. وأيما كظم يحدث لنا، إن لم

تفرج عنه ، يندس فى النفس ويكمن . والأحلام تفرج عنه بعض الشيء . ولكن المريض يلجأ إلى العقيدة التى يجد فيها أحياناً ميناء السلام . ونعنى أية عقيدة

فإن الذى يشكو الصداع من ارتفاع الضغط فى الدم قد يؤمن بأن الترمس هو دواؤه الناجع . وهو يأكل بضع حبات منه كل مساء أو كل صباح

والذى يشكو المرض السكرى قد يؤمن بأن شراب الخروب هو أنجع دواء . وهو يملأ البيت بالخروب

والذى يشكو الأرق قد يؤمن بأن رائحة النعناع تجلب إليه النوم

والعجيب فى كل ذلك أن المرضى يجدون بعض الراحة فى كل هذه «الأدوية» . وذلك لأنهم يرتاحون إلى عقيدتهم . والراحة النفسية تؤدى إلى شيء من الراحة الجسمية . بل تؤدى إلى تخفيف الآلام

والتجاء المرضى إلى الأرواح هو عقيدة تخفف بعض آلامهم. لأن المريض ما دام يؤمن بأنه سيشفى ويوقن بأن الشفاء مؤكد فإنه يشفى إذا كان مرضه نفسياً . ويشفى شفاء تاما . أما إذا كان مرضه جسمياً فإنه يجد الراحة النفسية التى تزيل آلام مرضه أو تخففها . ولكنها لن تزيل المرض

وأخيراً هناك ما يسمى «العمى السيكلوجى» ، وهو أن يكون أمامى شيء أو إنسان لا أحب أن أراهما . وعندئذ لا أراهما . كما أن هناك ما يسمى «الصمم السيكلوجى» ، وهو ألا أسمع شيئاً لا أحب أن أسمعه مع أن جارى يسمعه

وعكس ذلك يحدث . فإذا كنت أعتقد إنى سأرى شيئاً أو إنساناً فإن من المؤكد أنى سأراه وإن لم يكن حاضراً . وإذا كنت أعتقد أنى سأسمع شيئاً فإنى سأسمعه وأن لم يكن هناك ما يسمع

بل إنى أستطيع أن أؤلف صورة أو أسمع صوتاً لأيما شيء يحس. وذلك للعقيدة التى تبعث فى نفسى رغبة تشبه العاطفة كى أصدق

لنفرض أنى مريض أشتهى الشفاء . وأنا أعتقد أن «الروح» ستأتى إلى الغرفة المظلمة وستقول لى أننى سأشفى . فالعقيدة تبعث فى نفسى الرغبة فى التصديق . وأيما صوت يحدث أمامى أفسره بأنه يقول «أنت ستشفى»

وعندئذ أخرج وأنا مرتاح وأشهد بأنى سمعت الروح تتكلم

وهذا عبث

لماذا يترك الناس التفكير المنطقى ويعمدون إلى العقيدة ؟

إن فى الإجابة على هذا السؤال التفسير المقنع للتعلق بالأرواح ذلك أن المؤمن بالأرواح «يعتقد» وقد يتعقل ، وهذا الاعتقاد برهان على أن فى نفسه حاجة ملحة إلى الإيمان بعقيدة يعتمد عليها كما لو كانت جداراً يستمسك به أو عصا يستند إليها

والتعقل لا يحدث انفعالا إلا الأقل الذى لا نكاد نحسه

ولكن العقيدة تحدث انفعالا قوياً ، إذ هى لا ترجع إلى منطق العقل الذى لا يعتمد على المعاينة والرؤية وإنما ترجع إلى الحاجة النفسية حين نحس الشك أو الخوف أو الزعزعة فنلجأ إلى عقيدة معينة نستند إليها كما لو كانت الدواء الوحيد الباقى لنا

ومن هنا السهولة في مناقشة أحد الناس في شأن يتعلق بمنطق العقل، وإقناعه بتغيير رأيه إذا كان مخطئاً . ولكن من هنا أيضاً الصعوبة في إقناع رجل يتعلق بعقيدة وحمله على تغيير هذه العقيدة : إذ هو منفعل بها ، خوفا أو أملا أو نحو ذلك . وهو يحس أن تخليه عن عقيدته يزعزع كيانه وهو لا يطيق هذه الزعزعة

وأى إنسان يعتقد في شيء ما إنما يثبت بهذا الاعتقاد أنه يعالج به مركباً أو عقدة نفسية يمكن السيكلوجى بالتحليل أن يعرف مصدرها ويعين أسبابها . ولكن الأغلب أن هذا الإنسان يرفض التحليل للوقوف على أصول عقيدته لأن كيانه النفسى مرتبط بها

فالمجنون الذى يعتقد أنه ملك على مصر أو مدير او محافظ لإحدى المديريات أو المحافظات لن تستطيع أن تقنعه بأنه مخطىء . لأنه مرتاح إلى هذه العقيدة . بل كذلك هذا الرجل الذى يزعم أن الأرض ليست كروية وإنما هى مسطحة ، فإن جميع البراهين التى تصنع بها عقله لا قيمة لها إزاء استمساكه بعقيدته . وكذلك المؤمن بالأرواح

العقيدة عاطفة . والعاطفة قريبة من الجنون الذى يغشى العقل ويظلمه بل يلغيه . ونحن لذلك نغضب بل نحنق حين يجادلنا أحد فى عقيدة نعتنقها لأنها تثير فى أنفسنا عاطفة لا نتحمل نارها

سيكلوجية الصحافة

الصحافة ، مثل الرسم أو الموسيقى أو الشعر ، موهبة . ولكننا لا نعنى أن الانسان « يولد » صحفيا . لأن المواهب ، بل العبقريات أيضا ، ليست وراثية وإنما هى تكتسب بالبيئة والنشأة والتربية والحاجة الاجتماعية

والصحفى الموهوب ، عندما تسأل عنه أيام صباه ثم شبابه ، تجد أن غرامه بالصحافة كان يشغل ذهنه ويستنفد نقوده ويستولى على دروسه ويقلق عائلته . فانه حوالى الثانية عشرة مثلا ، كان يجمع الصحف ويغلف المجموعات من المجلات ويعرف الكثير من التفاصيل عن حياة المحررين والمخبرين والكتاب . فإذا تقدمت به السن وجدت أنه يراسل الصحف والمجلات قبل أن يبلغ السادسة عشرة ويحاول زيارة الصحفيين ويكتب المقال ويشترى الكتب التى يسترشد بها عن حرفة الصحافة

ولا عبرة بالقول بأنه كان فى تلك السن لجأ يكتب السخافات ويؤلف الهذر من القصص أو المقالات . فإن لجاجته هنا طبيعية منتظرة لأنه مبتدىء . ولكن العبرة بأنه يسير على الطريق الواضح ، وهو أنه « يهوى » الصحافة وأن لها فى قلبه مكانا لا يشغل مثله أى موضوع آخر

وهنا السؤال السيكلوجي : لماذا « يهوى » الصحافة دون غيرها من الحرف ؟

إن أهواءنا لا تطرأ مفاجئة . وإنما هي تتكون وتنمو وتتبلور . وهي في الأغلب تبدأ في تكونها أيام الطفولة . ثم يكون لنا من أيام الصبا ما يغذيها إذا وجدت الغذاء . فإذا وصلنا إلى سن الشباب عمدنا إلى التوفيق بين الهوى والمتسلسة ، أو بين نزعاتنا الفردية والملاءمة الاجتماعية ، وعندئذ نختار من الحرف أو الصناعات أو الأعمال الكاسبة ما يتفق والهوى القديم الذي نشأ أيام الطفولة ونما أيام الصبا

قد يكون هذا « الهوى » رذيلة لم تجد التربية السليمة لمعالجتها . مثال ذلك طفل نشأ على حب القسوة وكان في طفولته يهوى قتل الفراخ في أسابيعها الأولى . فإذا لم يجد التربية السليمة لمعالجة هذا « الهوى » فإنه يتجه نحو « السادية » أي القسوة في الاشتهاء الجنسي . وهذا بالطبع مرض . ولكن ليس ضرورياً أن يصل السادي إلى درجة المرض الذي يحتاج إلى علاج . إذ هو ، بضغط الظروف التي تربيه ، يتسامى بالسادية فيحترف العسكرية ويدعو إلى القتال . أو يحترف الطب ويجد في الجراحة ما يلائم ساديته مع المنفعة الاجتماعية ذلك لأن في الجراحة من شق البطون أو تمزيق الأعضاء أو بتر السيقان قسوة تنزع إلى السادية . ولكنها سادية متسامية قد ارتفعت من مستوى المرض إلى مستوى المنفعة

السادية في أصولها الذميمة تعذيب للمرأة وقت الاتصال الجنسي .

وهي ، بالتسامي ، حرفة أو عمل يحتاج إلى شيء من القسوة ولكنه يخدم المجتمع

ولكن السادية ، مع ذلك ، أصيلة في جميع الناس بلا استثناء ، ولكن بدرجات منخفضة لا نكاد نحس بها ، فإن في الإتصال الجنسي بين السويين ، شيئاً منها . وكثير منا يحب أن يرى القتال بين الحيوانات أو يحب قراءة القصص التي تحفل بالقتل والخطف والغدر ، فإننا نحس هنا لذة سادية لنا فيها نصيب المتفرج وليس نصيب المشترك

ولكن هذه العاهة النفسية قد تفدح حتى ليقتل الرجل ، المريض ، شريكته في الاتصال الجنسي وقت الاتصال

وجميع الأمراض النفسية أصيلة في نفوسنا سواء أكنا أصحاء أم مرضى ، وإنما يختلف المريض من السليم بالكم وليس بالكيف . وليس من نسميه (مجنونا) يهذي بأنه ملك مصر ، أو بأنه يركب الجواد ويطير به في الهواء ، أو بأن القطار يدوسه ويفتت أعضاءه ، ليس هذا المجنون المريض طراز آخر غير طرازنا نحن السويين . فإننا نشترك معه على الأقل بأننا نسلك سلوكه وقت الأحلام حين يتسلط عقلنا الباطن على عقلنا الواعي

و(المجنون) يختلف منا فقط في أننا لا نخضع لهذا التسلط سوى دقائق وقت الحلم ، أما هو فيبقى طوال السنين وربما طيلة حياته وعقله الباطن يتسلط على عقله الواعي

وهناك ، إلى جنب السادية ، عاهة نفسية جنسية أخرى تفدح أحيانا حتى تقود صاحبها إلى السجن أو المارستان ، هي ما يسمى « العرض »

وقبل أن نذكر « العرض » نحتاج إلى أن نقول إن العاهات النفسية كثيراً ما تتبلور فى الاتصال الجنسى . فإن السادية تظهر على أسوأها فى هذا الاتصال . و«العرض» كذلك يتبلور ويظهر على أوقحه فى الرغبة الجنسية . لأن « العارض » يبدى أعضاءه التناسلية قهراً واضطراراً بحيث يقع تحت طائلة العقاب على العمل الفاضح

ولكن هناك أيضا العارض الخفيف الذى يتجاوز المواقف الجنسية فيرتفع إلى الملاءمة الاجتماعية . فإن « حب الظهور » هو إلى العرض بمثابة فن الجراحة إلى السادية

وذلك الرجل الذى يهوى الخطابة ، أو الصحافة ، أو المسرح ، أو السينما ، هو عارض أيضا من حيث لا يدرى . قد ارتفع بعاهة جنسية أصيلة فى جميع الناس فاقتصر منها على حب الظهور فى حرف تحتاج إلى هذه الخصلة الأخلاقية

فالصحافة ، من الناحية السيكلوجية ، يمكن أن تسمى عرضاً متسامياً

ولكن الصحافة ، مثل الجراحة ، تحتاج إلى درس وتعب وتنقيب

وهذا الدرس نفسه يعود إلى مركبات عديدة . فهناك الصحافة اليسارية التى تتسم بالثورة أو التمرد على الأوضاع الاجتماعية أو الفنية أو السياسية أو المعارضة للنظم والعادات . وأعظم من ينجح فيها هو ذلك الشخص الذى لم يسعد بحياته العائلية . فإنه ينشأ متمرداً فى المجتمع ، ونعنى هنا أن يكتسب هذا الاتجاه منذ طفولته حين لم يكن يجد الحرية فى البيت فصار بعد ذلك ينشدها فى الوطن

ونحن فى كل ما ننشد من أمان وفى كل ما تتجه إليه من خطط إنما نستوحيه ، كما سبق أن أشرنا ، من حيث لا ندرى أو ندرى ، من أيام طفولتنا . نستوحيه خاماً بدائياً . ثم ، بعد أن نتعلم ونتسامى بعاداتنا الفكرية الأولى ، ننشد نظاماً يتفق وما تولد فى نفوسنا من ميول طفلية

والصحفى يأخذ فى درس الموضوعات التى تتصل بهذه الميول ، وهو قد يأخذ من الصحافة بالناحية الخبرية ، أو بالترجمة ، أو بالعلوم والآداب ، أو بشئون المرأة ، أو شئون الشباب . وهو فى كل ذلك يستند إلى اتجاهات أصيلة تنهض على مركبات قديمة فى كيان شخصيته

وهنا نحتاج إلى أن ننتقل من الأساس السيكلوجى « العرضى » إلى أساس سيكلوجى آخر . فإن هناك طرازين من الناس أحدهما الطراز الانطوائى الذى يتسم بوجه مستطيل نحيف وقامة مديدة نحيفة ورأس لا تصلع فروته . والطراز الانبساطى الذى يتسم بوجه مستدير سمين مليء باللحم ورأس يبدأ فيه الصلع ، منذ سن الخامسة والعشرين ، من الجبهة ويسير نحو الخلف فى نظام كأنه مرسوم ، بحيث لا يصل الانبساطى إلى سن الخمسين أو حتى الأربعين إلا ويكون أعلى رأسه فى صلع تام . وهذا إلى أن الانبساطى يسمن ويستكرش وهو فى الأغلب ليس مديد القامة مثل الانطوائى

هذا هو الرسم الكروكى لكل من الطرازين فى اللحم والعظم . أما الرسم النفسى فيتلخص فى أن الانطوائى يتأمل أكثر مما يتحرك ، ويجد أكثر مما يهزل ، وينفرد أكثر مما يجتمع . وهو إذا دخل فى الصحافة

كتب المقالات وألف الكتب وعلق على الأخبار وفق المبادئ والمذاهب وبكلمة أخرى هو فيلسوف الصحافة المتأمل المفكر المتمذهب

أما الانبساطي فيحب الحركة وينتقل ويتعب كي يتحرى حقيقة الخبر . وهو خفيف الروح كثير الدعابة والهزل . وهو يرى على الدوام مجتمعا ، يأتنس بحديث الأصدقاء ويكره الانفراد . وهو لا يميل إلى القراءة والتأمل . وهو في الصحافة كاتب الخبر لا يطيق قراءة المقال ولا يعرف كيف يكتبه

وجرائد الأخبار والصور هي الجرائد الانبساطية التي قد تسرف فتنشر لنا أخباراً أو صوراً تنأى عن التحفظ والوقار

وجرائد المقالات والتعليقات هي الجرائد الانطوائية ، قد تسرف فتتجنب رواية الأخبار وتحتقر قيمة الصور فيعزف عنها جمهور القراء

الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية

الشخصية شيء نعرفه ونلمسه في بعض الأفراد ، ولكننا لا نعرف كيف نعين تعريفه

فقد ذكر المؤرخون أن إخناتون كان أول شخصية في التاريخ . وذلك لأنه رفض الانسياق وراء التقاليد والإيمان بما يؤمن به المجتمع المصرى القديم ، وآثر استقلاله الفكرى فكفر بالآلهة وآمن بآله واحد

ونحن نرى هنا علامة أولى بل علامة كبرى من علامات الشخصية وهى استقلال الفكر . استقلال السلوك ، الجرأة على التصريح بالرأى الخاص ولو خالف هذا الرأى مزاعم الجماهير أو مزاعم الخاصة

وفى القرن الرابع نجد فى مصر خلافاً مذهبياً كاد يكون شجاراً . ذلك أن أحد المصريين ، هو الأسقف اثناسيوس ، ارتأى رأياً فى الدين يخالف آراء الكافة من رجال الدين فى الدولة الرومانية الشرقية . واستمسك برأيه وثبت عليه . فقال له أحد الأساقفة :

— إن العالم كله ضدك

وهنا نجد موقفاً مشابهاً لموقف اخناتون هو أن الشخصية تحتاج إلى شرط لا غنى عنه هو استقلال الرأى

ونحن حين نعجب بأبى بكر أو عمر، أو بغاندى أو نهرو، أو بابراهام لنكولن أو ثورو، إنما يكاد ينحصر إعجابنا فى أن كلا من هؤلاء كان مستقلا فى رأيه لا يبالى ولا يخشى ما يقوله الآخرون

بل إن استقلال ثورو قد ارتفع إلى حد العمل. فإنه كان يقول بضرورة «العصيان المدنى»، وعمل بهذا القول، فرفض أن يؤدى الضرائب. وحبس لذلك

وكل هؤلاء الذين ذكرنا، نصفهم بأنهم كانوا يمتازون بشخصيات قوية، لأنه كانت لهم ميزة الاستقلال فى الرأى

والشخصية بطبيعتها اجتماعية

وليس هناك مع ذلك من ينكر أن هناك اختلافات فى الكفاءات الوراثية تعين وتميز بين الشخصيات الإنبساطية، ولكن المجتمع هو الذى يعين ٩٩ فى المائة من الشخصية

أى أننا نكتسب الشخصية من الوسط الاجتماعى الذى نعيش فيه، ومن الحوادث التى نتلقاها فى حياتنا ونستخلص منها عبرة لأخلاقنا وحكمة لسلوكنا

ولذلك هناك المجتمعات الحرة التى تتيح للفرد أن يستقل ولا يخشى الموت أو ما يقارب الموت من المقاطعة. وهذه المجتمعات تبنى شخصيات أفرادها

أما حين يكون المجتمع تقليدياً ينكر حرية الفكر ويجعل للعادات

فى اللباس ، والسلوك ، والعيش ، قواعد لا يجوز تخطيها ، فإنه يهدم الاستقلال ويعطل نمو الشخصيات

إننا نذكر نابليون بحروبه . ولكن هناك موقفاً واحداً وقفه يجعلنا ، حين نذكره ، نعزو شخصيته إليه دون هذه الحروب

ذلك أنه حين عزم على أن يكون (أمبراطوراً) احتاج إلى أن يجعل البابا، زعيم الكاثوليكية فى العالم ، يضع التاج على رأسه . ولكنه فى اللحظة الأخيرة تذكر استقلاله ، فنهض وحمل التاج بيديه ووضعه بنفسه على رأسه ، كأنه أراد أن يعلن للعالم أنه مستقل

وفى أيامنا يؤكد سارتر استقلال الشخصية البشرية ، وأن أول شرط لهذا الاستقلال أن نؤمن بما نعتقد نحن ، وليس بما يعتقد غيرنا من التقاليد الاجتماعية أو العقائد الغيبية ، ، وهذا الاستقلال هو أعظم ما يجذب إليه الشبان فى فرنسا بل فى أوربا

وحين يحيا الشعب فى نهضة تكثر الشخصيات فيه ، لأن النهضة تدعو إلى الانطلاق من القيود واستشعار الحرية، وكلاهما يعمل للتفكير المستقل ثم لبناء الشخصية. ولذلك ، نجد شخصيات مستقلة بل مسرفة فى الاستقلال أيام النهضة الأوربية مثل باركيلوس وجاليليو وعشرات غيرهما

باركيلوس الطبيب الإيطالى يحمل مؤلفات جالينوس وابن سينا ويحرقهما علنا فى ميدان المدينة ويصيح فى الشعب بأن القدماء لاقيمة لهم

وجاليليو يجبر على الاعتراف بأن الشمس تدور حول الارض فإذا وصل إلى الباب ليخرج يقول: بل الأرض هى التى تدور

كلاهما له شخصية قاعدتها الاستقلال فى الفكر والرأى

ولكن الاستقلال فى الرأى لا يعنى عناد الجاهل أو تعنت الأبله ذلك أن الشخصية تحتاج إلى المعارف التى تستقطر منها حكمة العيش وسداد القصد. وقد تكون هذه المعارف مقصورة على شئون التجارة وعندئذ نجد التاجر الذى يمتاز بشخصيته. وقد تتجاوز ذلك إلى الآداب والفلسفات، وعندئذ نجد المفكر الذى يستقل فى فكره ورأيه بشخصيته العالية

وأعظم الشخصيات بالطبع إنما تنشأ فى وسط تنتشر المعارف السليمة السديدة والاختبارات الثانية العديدة

وقوة الاختبارات ووفرة المعارف تكونان الشخصية

ولذلك نحن لا نجد شخصية للمرأة التى تقصر وجودها بل حياتها على شئون البيت لا تعرف المجتمع أو الثقافة أو حتى الضيافة. ولكن المرأة المصرية التى خرجتها جامعاتنا فى العشرين سنة الأخيرة تمتاز بشخصية، لأن لها رأيها المستقل وأهدافها الشخصية التى قد تخالف مألوف المجتمع

إن الوسط الإجتماعى، بقدر ما يتيح للافراد من استقلال، وأيضاً بقدر ما يتيح لهم من اختبارات ومعارف مختلفة، يكون الشخصيات

فوسط المدينة لهذا السبب أدعى إلى تكوين الشخصيات من وسط الريف

وأحب أن أكرر أن الشخصية لا تعنى العناد أو التعنت. فإن

هذين المعنيين يثبان إلى أذهاننا حين نذكر الاستقلال الذى كثيراً ما يكون ثباتاً على رأى . لكن نحن واهمون هنا . لأنه إذا كان الثبات على رأى سديد يدل على شخصية قوية فإن المرونة كذلك تدل على عقل يقظ . وهذه المرونة هى التى تهيء الفرد لمواجهة المواقف الجديدة حتى يتغير و يتطور

أين شخصيتك أيها القارىء ؟ أين استقلالك ؟

إن الدنيا تتغير بالشخصيات المستقلة التى تأبى الخضوع والاستسلام لعادات الأسلاف وتقاليد القرون . الشخصيات التى تثبت على الرأى الشخصى الناضج ولكنها أيضاً تتغير وتتطور بمقتضى الظروف

السعادة هى أن تمارس الحياة

منا من يمارس التجارة أو الزراعة . ومنا من يمارس المحاماة أو الطب أو وظيفة ما فى الحكومة أو الهيئات الحرة

ونحن كى نمارس فناً أو صناعة أو حرفة ، نحتاج إلى أن ندرسها ونعرف أسرارها ونمهر فيها . وعلى قدر دراستنا يرتفع مقدار كسبنا منها أو تفوقنا فيها

ولكن الذى ننساه أن قيمتنا الإنسانية واستمتاعنا وسعادتنا ، بل صحتنا النفسية ، تحتاج جميعها إلى أن نمارس المحاماة أو الطب أو الزراعة أو الصناعة وكما تحتاج هذه الصناعات إلى مهارة وحذق، كذلك تحتاج ممارسة الحياة إلى مهارة وحذق . وهذا نهمله . وإهمالنا لممارسة الحياة هو فى النهاية إهمال للصحة النفسية ، والتربية الذاتية ، وحكمة العيش ، والفلسفة التطبيقية

وهذا المجتمع الاقتنائى الذى نعيش فيه يكسبنا أهدافاً ويعين لنا أساليب تجعلنا نكبر من شأن الثراء والاقتناء. فنتعب ونكد حتى ننجح. ولكن هذا النجاح فى الثراء والاقتناء فقط وليس فى الحياة

وهذا الرجل الذى كنا نعده مستقيماً فاضلا يخرج من بيته إلى عمله

ويعود من عمله إلى بيته، يدخر ويقتني منزلا ويمضى شيخوخته بطريركياً يسوس عائلة تكاد تكون رهطاً ، هذا الرجل لم يعد المثل الأعلى لنفوسنا الحرة وعقولنا المستطلعة . إذ هو رجل عرف عاش حياة سلبية يتوق فيها ويحتجز ولا يقدم ويغامر ويشتبك . وبكلمة أخرى لم يمارس حياته

إنما نمارس حياتنا حين نعى أن فراغنا ١٨ أو ١٦ ساعة بينما عملنا لا تزيد مدته على ٦ أو ٨ ساعات . وبناء على ذلك نعنى بفراغنا العناية الكبرى . فنعرف كيف نقرأ الصحيفة والكتاب ، ونشتبك فى شئون السياسة والاجتماع، ونناقش فلسفة سارتر وماركس . ونحاول أن نفهم الذرة ونعرف سطح المريخ ، ونختبر الدنيا بالسياحة ونختبر المرأة بالحب ، ونجرؤ على أن نفهم هذا الكون ، ونجرؤ على أن نستكنه الظلام الذى خيم على أبى نواس والمركيز دوساد كما خيم على نفوس آلاف المجرمين . ونحاول أن نصلح هذا الفساد

إنما نمارس الحياة حين نسيح . ولا نعنى بالسياحة تلك الوثبة الجوية إلى قطر ناء نمضى فيه أسبوعاً وأسابيع فى رؤية سينمائية للمدن وللمسارح . وإنما نعنى أن يمضى كل إنسان من عمره عاماً أو أعواماً فى فرنسا أو الهند ، وفى الصين أو ألمانيا ، وفى السودان أو تركيا

أليس هذا الكوكب ملكنا ؟ فكيف إذن نغادره بالموت قبل أن نراه ونختبره ؟ قا[illegible] مشروعاتهم الكبرى فى زراعة صحاريه، وفى تغيير المجارى [illegible] استغلال قطبيه ، وفى تربية الأسماك فى خيطاته ، وفى إنماء ثروانه ، وفى تعميم التعليم والثقافة ، وفى مكافحة

الحرب والمرض والجهل والفقر؟

إن ممارسة الحياة فن على كل منا أن يتعلمه بنفسه، وأن يقدر الفرص المتاحة له كي يجرؤ ويستطلع ويختبر. وأعظم أنواع الاختبار وأجملها وأسماها هو الحب الذي ينتهي بالزواج فيبني حصناً من السعادة الدنيوية

وشبابنا يهملون دراسة الحياة ثم يعجزون عن ممارستها، وقصارى مجهودهم في الدنيا أن يمارسوا صناعة للارتزاق. وقد ضيق علينا الاستعمار والاستبداد معاً حين منعا عنا إنشاء المصانع، حتى صار الارتزاق مشكلة، ونشأ التعطل فأصبح الهم والاهتمام الأولان لكل شاب الحصول على عمل للارتزاق. وحتى أصبح الاتجاه للنشاط وانبعاث الهمة والطموح مقصورة جميعها على لقمة العيش لا أكثر

وأسوأ من الشاب الفتاة، على الرغم من القلة الصغيرة التي تعلمت من نسائنا واحترفت الحرف لا تزال الملايين من فتياتنا ونسائنا يحتجزن في البيت كأنه هو كل ما ينبغي أن تطلق فيه طاقتهن البشرية. وكأن هذه الدنيا بما فيها من علم وصناعة، وعمل وسياحة، وفلسفة وسياسة، كأنها لا قيمة لها عندهن. فهن في احتجاز منزلي قد أدى إلى احتجاز ذهني

وليس المنزل، في تطوره الأخير، مما يستوعب نشاط المرأة. بل هو لا يستوعب نصف نشاطها. ويجب لذلك أن يكون لكل امرأة نشاط خارجه هو نشاط الحياة الحية المتسائلة المستطلعة الدارسة المشتبكة في شئون كوكبنا. لأن ما ينطبق على الرجال في ممارسة الحياة ينطبق على المرأة

وهذا الدستور الجديد الذى منح المرأة حق الانتخاب قد فتح كوة لها على الدنيا . وهي كوة صغيرة بلا شك ولكنها سوف تتسع بل تتراحب إلى ميادين ثم إلى آفاق فى المستقبل . وعندئذ يزول عنها حجاب العقل كما زال عنها حجاب المنزل

وأخيراً يجب أن أقول إن الفرق بين رجل سعيد سليم النفس ، وبين رجل بائس مريض النفس ، هو أن الأول كثير الاهتمامات العليا التى ترفعه من الشئون العادية اليومية إلى قمم الأفكار حتى يحس بأن هذا العالم كله هو قريته التى يعرف ناسها وشوارعها ويهتم بإصلاحها وإنمائها . أما ذلك البائس الذى لا يدرى أحيانا ، لفرط بؤسه ، أنه بائس ، فهو ذلك الذى لا يهتم إلا بعمله ولقمته . وهو جدير عندما يموت أن يكتب على قبره :

« ولد إنساناً ومات بقالا »

أنت أيها القارىء إنسان قبل أن تـ... موظفاً أو صانعاً أو فلاحا أو محامياً أو مهندساً أو بقالا . فأحي إنسانيتك وغذها بالاهتمامات العالية . واذكر أن من حقك أن تستقطر آخر قطرة من السعادة على هذا الكوكب ، إذ ليس لك كوكب آخر تعيش فيه وتنشد فيه السعادة . لأن المريخ لا يزال حلماً لما يتحقق احتلاله على أيدى البشر

لا تكن فى حرب باردة مع نفسك

كثيراً ما دعوت إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية العصرية وأهدافها . وقد يعتقد من يقرأ قولى فى هذا الموضوع أنى مغرم بهذه الحضارة لا أعرف ما هو أعمى منها . وهذا وهم أعذر القارىء عليه

ذلك أن ما يدفعنى إلى القول بالأخذ بالحضارة الغربية العصرية إنها حضارة عدوانية مسلحة فى السلم والحرب ، وأننا إذا لم نجارها استطاعت أن تهزمنا وتكتسحنا بل تبيدنا كما تفعل الآن مع الزنوج فى إفريقيا . وأكبر أسلحتها هو الصناعة التى يجب أن نعجل بل نهرول فى الأخذ بها

ولكنى مع ذلك لا أعمى عن العيب الأصيل فى هذه الحضارة وهى أنها إنفرادية إقتنائية تزاحمية عدوانية شعارها الذى تعمل به هو : تنازع البقاء ، والبقاء للأقوى ، وأنا وحدى ، والموت للمتخلفين

وهذا النظام الانفرادى الذى تحاول جميع الطبقات الواعية أن تنتقل منه إلى نظام تعاونى اشتراكى هو الأصل فى جميع أو معظم أمراضنا النفسية ، وفى جميع ما نعانى من هموم وتوترات ومخاوف قد تحملنا على الإجرام أو تردينا فى مهاوى الجنون أو تدفعنا إلى الهروب والنسيان بالخمور والمخدرات

هـــذا النظام الانفرادى هو الذى يشيع القلق بيننا ، لأننا نخشى التخلف والإفلاس والفقر والجوع ، فنمتلىء هموماً تزيغ عيوننا وعقولنا عن رؤية الحياة كما يجب أن ترى بقيمها الإنسانيـــة الحقيقية بدلا من القيم الاجتماعية الزائفة التى تمليها علينا هذه الحضارة . ولذلك عندما نقول بالأخذ بالحضارة الأوربية العصرية يجب ألا ننسى هذه العيوب الأصيلة فيها . وإنما ندعو إليها مؤقتا كى نحتمى من عدوانها . سلاح بسلاح . ثم نسعى لإيجاد المجتمع الاشتراكى الذى يريحنا من مآسيها وفظاعاتها

كلنا مهموم . والهموم سموم . تأكل أعصابنا وتعشى أمراض النفس والجسم فى أشخاصنا وتقصر أعمارنا . فإننا نحيا ، بحكم الأخلاق التى يمليها علينا المجتمع الانفرادى الحديث، فى طموح يرهقنا ولا نستطيع أن نتحمل مسئولياته . ونطمع فى الثراء أو الجاه بأكثر مما نطيق . ونعانى ألواناً من الحسد والغيرة فنحقد ونتحسر . وكثيراً ما نكظم . وليس شىء يحطم الجسم والنفس مثل الكظم . وأحياناً نستسلم لخرافات تثير فى نفوسنا عواطف زائفة قد تنتهى بموتنا أو دمارنا أو جنوننا

° ° °

أعتبر هذه الموتة التى نشأت عن روح الاقتناء

شاب قبطى أورثوذكسى أحب فتاة قبطية بروتستنتية وشرع يهيىء الوسائل للزواج منها . ولكن أمه كانت أورثوذكسية متعصبة لمذهبها، أو هى كانت تعتقد ذلك . فحاولت أن تمنع إبنها من إتمام هذا الزواج ، ولكنه أبى وأصر على إتمامه . فتحدت الأم ، حماة المستقبل ، إلى الفتاة

واعتذرت إليها عما قامت به من محاولات للتعويق وقبلتها . وعادت إلى منزلها ، وتم الزواج

وحدث بعد ذلك أنه في صبيحة اليوم التالي للعرس أن استيقظت الحماه وهي عمياء لا ترى شيئاً . وبعد أيام حدث لها فالج . وفي نهاية الأسبوع ماتت

فما هو التفسير ؟

التفسير أنها كانت تنظر إلى إبنها بروح الاقتناء كما لو كان عربة تملكها وتحب أن تحرص عليها حتى لا تضيع منها . روح الاقتناء هي الروح العامة للحضارة الإنفرادية التي أخذنا بها الحضارة الاقتنائية . ولذلك رعبت الأم عندما أحست أنها ستفقد إبنها بالزواج . ووجدت ، بل اختارت ، من حيث لا تدرى ، العلة السطحية الوهمية ، وهي أن الفتاة ليست أورثوذكسية مثلها ومثل ابنها

* * *

واعتبر هذه المرتة الثانية

كان عاملا فقيراً في مصنع . وارتقى لكثرة ما يبذل من مجهود أحق أن يقوم به رجلان بل ثلاثة بدلا من واحد . وبكلمة أخرى كان يرهق نفسه ويهتم ويقلق . إرهاق وقلق أحدثا له زيادة في ضغط الدم فصارت الصغائر تبدو له كبائر ثم ذات صباح مات بانفجار في المخ

فما هو التفسير ؟

كلنا يطمح إلى النجاح ، وهذا الطموح فضيلة إذا مارسناه في اعتدال بلا إسراف . ولكن النجاح ماء ملح يزيد عطشنا . ولذلك أرهق هذا

الرجل نفسه كي يستزيد من النجاح . فكان يجهد ويعمل أكثر عما يتحمل حتى زاد ضغط الدم على درجة الاعتدال . وانتفخت الشرايين حتى انفجرت

ومجتمعنا، كما يدعونا إلى الاقتناء، يدعونا كذلك إلى الطموح وأحياناً يقتلنا ، أو نحن نقتل أنفسنا بالعطش إلى الاقتناء وبإحساس الطموح المسرف . وفى كليهما قلق وهم يحدثان إرهاقا يؤدى إلى توترات ومخاوف لانطيقها

* * *

كل منا لهذا السبب ، فى حرب باردة مع نفسه ، إلا أولئك الحكماء الذين عرفوا كيف يقنعون وكيف يسوسون أعصابهم وينظرون إلى الحياة النظرة الفلسفية ويسلكون السلوك الحكيم

لقد قام « بافلوف » بتجارب على الكلاب نستطيع أن نستخرج منها حكمة لحياتنا فى هذه الحضارة التى ترهقنا وتقلقنا . ذلك أنه علم طائفة من الكلاب أن تنتظر تقديم الطعام بعد رنين من الجرس يبلغ ٥٠ رنة فى الدقيقة . فإذا زاد الرنين إلى مائة رنة فهم الكلب أن الطعام لن يقدم إليه

٥٠ رنة تعنى طعاماً

١٠٠ رنة تعنى « لا طعام » . أى حرماناً

وكرر بافلوف هذا الدرس للكلاب حتى فهمته واستقرت عليه

ثم قام بتجربة أخرى تتصل بنا نحن البشر . وذلك أنه جعل الجرس يدق ٧٥ رنة ثم يقف . فلا هو يؤذن بالطعام ولا بالحرمان

فماذا حدث؟

حدث القلق عنـد الـكلاب من الشك. فصارت تعوى وتتضور كأنها تبكى وتتألم

* * *

نحن فى الحضارة العصرية نعيش فى قلق الشك لا نعرف هل سننجح أم نخيب ؟. هل نثرى أم نفلس ؟. هل نمرض أم نبقى فى صحتنا ؟. هل نحيا أم نموت ؟. وكذلك لنا شكوك بشأن أولادنا وأصدقائنا

نعيش فى الحضارة العصرية على درجة ٧٥ رنة فى الدقيقة، لا طمأنينة بالطعام ولا يقين بالحرمان. ولذلك نحس القلق الذى يزيد، بقوة خيالنا، إلى مخاوف وأمراض نفسية خطيرة

وهذا القلق يجعلنا مكروبين، ضائقين، متوترين

والتوترات ترهقنا لأنها تحملنا على أن ننفق من قوة أعصابنا على العمل الصغير أكثر مما يستحق. لأن المتوتر كالمتعجل المهرول الذى يحاول ربط حذائه فيخطىء ويكرر المحاولة. أى أنه ينفق قوته سدى

وقد وجد بافلوف أن الكلاب القلقة التى ألح عليها بدرجة ٧٥ رنة تقصر أعمارها وتمرض بأورام مختلفة ويسقط شعرها وتصاب بما يشبه الروماتزم فى مفاصلها. أى أنها تبكر فى الشيخوخة

أى أن القلق العصبى عند الكلاب، ويقابله القلق النفسى عندنا، يعرضنا للأمراض الجسمية وينقص أعمارنا

كيف نسوس أعصابنا ونحن نعيش فى حضـارة تبعث فى نفوسنا

الشك والقلق وتحملنا على التوترات التي لا تنقطع ؟

يجب أن يدرس كل منا حياته ويعرض للسنين التي مضت من عمره والسنين التي ينتظرها ، ثم يؤلف من هذه الحياة نظاماً معقولا بعد أن يقيس كفاءاته إلى مقدار ما يواجه من ظروف . وعندئذ يعرف ويستقر على سلوك معين ترتاح إليه نفسه

فنظامنا الاجتماعي الحاضر يمجد الأنانية ويملؤنا بروح الطمع والاقتناء ، ويبعث في نفوسنا عواطف المباراة والحسد والغيرة . ونحن في حاجة إلى شيء من هذه العواطف كي نجد ونكسب حتى نعيش . ولكن يجب أن نفعل هذا بلا إسراف حتى لا نرهق ، أي يجب أن نحد طموحنا فلا نطلب النجوم التي لن ننالها

وتوترات النفس تؤدي إلى توترات الجسم ، والعلاج الأول للتوترات هو النوم الذي وصفه نيتشه بأنه سيد الفضائل . ولكن يجب أن ننام كي نستيقظ لأن النوم ليس غاية إنما هو وسيلة لأن نصحو ونجد ونتنبه ونفهم . وإذا كان النوم حسنا وافياً صارت يقظتنا حسنة وافية

وأقل من النوم في الراحة هو الاسترخاء للعقل والجسم

ويجب أن نلجأ إليه من وقت لآخر . بل يجب ألا ننام إلا بعد الاسترخاء . أي يجب ألا نطلب النوم ونحن في التوتر نحس الكرب والضيق . لأن نومنا عندئذ لن يكون استجماماً ، إذ هو سيمتلىء بأحلام الكابوس ، فنتشاجر ونتساب في النوم . ونستيقظ مرهقين متعبين

قد يرد القارىء بأنه لا يتمالك توتراته قبل النوم . وجوابي هنا :

« أكذب على نفسك » . أى فى اللحظات الأخيرة وأنت تشرع فى النوم ، وقد تمددت واسترخيت على الفراش ، قل مثل هذه الكلمات الايحائية أو ما يقابلها من ظروف حالتك :

« أنا مرتاح . فى استرخاء تام . سأنام نوماً عميقاً مريحاً إلى الصباح »

قل هذه الكلمات نحو عشرين مرة وثق أن عقلك الباطن يسلم بها . لأنك عندئذ لن تكون نائماً فقط بل منوماً أيضا تقبل الايحاء

ولكن تذكر أن الاستجمام السيكلوجى الأصيل يقتضى تخلصك من همومك وتوتراتك . ولن يكون هذا إلا إذا راجعت حياتك ووزنت كفاءتك وفلسفت . والفلسفة هنا لا تنقص ضرورتها لك عن الخبز

لا تكن فى حرب باردة مع نفسك، فان نفسك هى إنسانة جسمك. ولا تثر فى نفسك عواطف الطموح المسرف ، والحسد والغيرة ، والرغبة الجامحة فى النجاح والاقتناء

ثم ما ينتج عن هذه كلها من عواطف القلق والخوف اذا لم تتحقق، ثم التوترات فالانهيار

قاوم روح الحضارة الانفرادية فلا تتركها تكتسحك . وفكر فى الحب والقناعة . وخذ بفضائل عليا جديدة . وأعظمها أن النجاح الصحيح هو صحة النفس والجسم ، مع النمو فى الثقافة والتوسع فى الوجدان، والحب للطبيعة والناس ، والاعتماد على العقل دون الانسياق مع العواطف

وأخيراً لا تنس أن غذاء نفسك هو الفنون . فتعلم فناً ومارسه . وكن ذكياً . وأعلى أنواع الذكاء هو الإنسانية

النعيم المقسـيم

كان عبد العال بقالا صغيراً يعيش من دكان حقير فى زاوية منسية فى حى وطنى . وكان يبيع البقول المتخلفة من الدكاكين الكبيرة، وهى سقط البقول يشتريها سقط الناس . وكان يعيش مع أمه التى تجاوزت الخمسين والتى عرفت من حياتها المريرة الماضية كيف تستغل القرش والمليم إلى أقصى حدودهما فى شراء الخبز البائت والبصل والفجل. وكيف تصنع المخلل ، وتطبخ نصف الرطل من اللحم مع بعض البقول فتخرج منه أطباقاً من الطعام الشهى

وكانت هى وابنها عبد العال راضيين بهذه العيشة ، لايطمعان فى أحسن منها ، إذ لم يكن هناك منفذ إلى ما هو أحسن

ولكن الحظ الذى يرفع ويحط نزل ذات يوم على عبد العال بما يقارب عنده ليلة القدر ، فإن عمه مات فجأة بلا وارث وكان يملك منزلا يغل سبعة جنيهات فى الشهر

وتسلم عبد العال المنزل ، واشترى بدلة أوربية ، وخلع الجلباب وأصبح عبد العال أفندى . وكبر دكانه وإزدحم بالبقول الحسنة وإستخدم صبيا

وتسامع السا كنون القريبون منه بقصته : الميراث والبدلة والصبي. وطمحت عيون الفتيات إلى الزواج منه وأصبحت أمه مقصودة تزورها سيدات الحي، اللاتي لم يكن قبل ذلك يعرفنها ، ومع كل منهن ابنتها التي تجاوزت العشرين أو كانت دونها بقليل. ولم يمض قليل على وفاة العم الموروث حتى كان عبد العال افندى قد تزوج وبعد أقل من عام كان يستمتع برؤية أبنه زكى طفلا جميلا

وتجمع عند عبد العال أفندى من متجره ومن المنزل الموروث نحو ثلاثمائة جنيه ، بنى منها زيادات على المنزل ، ووسع متجره ، وأصبح يحس كبرياء جديدة فلا يحيي أصدقاءه القدامى ولا يتعرف إلا بالكبراء من الموظفين الذين يزيد مرتب أحدهم على عشرة جنيهات فى الشهر . وكان يحس أنه يفضلهم لأنه كان يكسب من المتجر والمنزل نحو عشرين جنيها فى الشهر

وكان الطفل زكي يقضى معظم وقته مع جدته التي كانت تدلله وتملأه سروراً وضحكاً وتمازحه وتدغدغه ، لأن أمه كانت مشغولة بتدبير المنزل وبزيارات الصديقات

وبقى إلى سن السادسة وهو لا يكاد يعرف أن له أماً غير الجدة الحبيبة إلى قلبه . وكانت الخادمة تذهب به كل أسبوع إلى متجر أبيه حيث كان يعطيه فى عجلة القليل من الحلوى بعد أن ينهر الخادمة لأنها جاءت به إليه ، ثم يأمرها بالعودة إلى المنزل

ولما بلغ السادسة ادخل فى الروضة . وفى هذه السنة نفسها ماتت جدته . وأحس الصبي فراغاً نفسياً لم يفهم منـــه غير الصبابة التي

كانت تحمله من وقت لآخر على أن يقعد سابحاً فى فكره ينظر إلى غرفة جدته التى طالما لعب فيها ومرح وضحك

وكان أبوه ، الذى ترك المدرسة وهو فى السنة الثالثة الابتدائية يحقد على كل الذين استطاعوا إتمام دراستهم فى حين هو عجز عن ذلك لفقر عائلته . وكان ينظر إلى الموظفين الذين هم دونه فى الكسب نظرة الغيرة لأنه هو بقال أما هم فموظفون محترمون

وهذا الاحساس جعله يرصد اهتماماته وأطماعه فى ابنه زكى ، وأنه يجب أن ينشأ النشأة العظيمة حتى يصل إلى الجامعة ويتخرج منها ويوظف . فكان هو وزوجته يتناولان هذا الصبي المسكين بعد عودته من المدرسة بالالحاح عليه فى « المذاكرة » . وكانت أمه تسأله إذا غاب عن ميعاد العودة من المدرسة بدقائق : أين كان ، ولماذا تأخر . وكان الصبي يقعد إلى كتبه ودفاتره فيذاكرها ، فإذا انتهى منها لم يجرؤ على تركها كى يلعب مع أولاد الشارع ولم يجرؤ على النوم . فكان ذهنه يسرح فى خيالات لذيذة تعوضه من سأم المذاكرة ، ومن هذه العقد المعذبة وهو مربوط إلى مكتبه الصغير لا يبرحه

وكان أبوه عندما يحضر من دكانه يقول له ، حتى وهو يراه قاعداً مشغولا بالمذاكرة : ذاكر ، ذاكر ، ذاكر . بل إنه حضر ذات مرة فى الساعة الثامنة وكان زكى قد نجح فى الشهادة الابتدائية والتحق بمدرسة ثانوية فوجده نائماً فايقظه وطلب منه أن يذاكر ، ويذاكر ، ويذاكر

وقضى زكى السنوات الخمس بالمدرسة الثانوية وهو يذاكر وينجح

ويتجح . وكان أبوه ينظر بعين النمر إلى سلوكه، فلم يكن يسمح له بالدخول فى دار سينمائية أو بالتخلف عقب المدرسة للعب، أو بالممازحة حتى وهو يتعشى مع والديه . ولذلك كان زكى أخيب الشبان فى كل شيء إلا فى المدرسة. وكان أيضاً مع نجاحه فى المدرسة معطل الذكاء. لا يعرف هل ثمن الحذاء عشرة جنيهات أم عشرة قروش . ولا يستطيع أن يتخيل أن أحداً فى سنه يستطيع أن يسافر وحده من القاهرة إلى الاسكندرية . ولم يعرف شيئاً من جمال البقول ونضرة الزرع والزهر. ورأى زكى بعض زملائه فى المدرسة يدخنون ففعل مثلهم ، ولما عاد إلى البيت أخبر أمه وهو يضحك بما فعل . ولكن هذه أخبرت والده الذى سلط عليه العصا الغليظة ، وضربه ضرباً قاسياً . ورآه أبوه ذات مرة وهو يقرأ قصة غرامية فنزعها منه وضربه بقسوة . ولم يكن يدخل البيت مجلة مصورة أو جريدة يومية أو قصة أو أى كتاب آخر غير الكتب المدرسية . ولم ينعم قط بنزق صغير أو كبير

ونال زكى الشهادة التوجيهية وهو فى حوالى السادسة عشرة وشرع أبوه يعده للدخول فى كلية الآداب بالجامعة . وكان زكى كلما سمع عن الجامعة يضطرب لأنها كلهـــا مذاكرة ، ولماذا لا يوظف من الآن ويستريح من المذاكرة ؟

وكان يلجأ إلى فراشه فى شهور الاجازة ويفكر فى هذا العذاب المنتظر من الجامعة ، وفى الرقابة الجهنمية التى كان يمارسها أبوه عليه حتى يقضى كل وقته فى البيت فى المذاكرة . فيحس كرباً كأن جسمه ينبض بالوجع . وكان قد عرف قبل سنتين العادة السرية ، وكان كل ليلة

تقريباً يسرى بها عن كظمه وحبس عواطفه ، وكان يتخيل الخيالات اللذيذة ، ثم يفرج عن نفسه بهذه العادة وينام مستريحاً

أما الآن وهو فى السادسة عشرة فقد غمرته الخيالات الجنسية وانغمس لذلك فى هذه العادة التى صار يمارسها فى اليوم الواحد نحو سبع أو عشر مرات . وأرهقته هذه العادة حتى كان يلهث عندما يصعد على السلم . وشحب لونه وهمدت قواه . وكان يخفى كل ذلك ويخشى من هذا الاخفاء نفسه ، ويحس خجلا وإجراماً كلما قعد إلى والديه أو أحد الغرباء . وكان عندما ينام يحلم أحلاماً لذيذة تتكرر كل ليلة بتنقيح خفيف أو بلا تنقيح ، هى أنه يعود طفلا يلعب مع جدته فى الغرفة المقابلة ، وكانت تحمله على ظهرها أو تطرحه وتدغدغه حتى يكاد يموت من الضحك . وتطورت الأحلام عنده بعد ذلك فكان يرى نفسه وهو على جواد مذهب السرج واللجام ، ثم يطير الجواد به فوق القاهرة ، وجدته تنظر إليه ، وهو يقطع الجو . وفى الوقت الذى كان يستمتع الشبان فى سنه بصبوات النزق فى السهر ومعاكسة الفتيات بكلمات جنسية ، أو كانوا يروحون عن سأمهم برؤية القصص السينمائية أو قراءة القصص الغرامية ، ويخرجون إلى الحقول حول القاهرة أو يركبون البسكليت أو يقضون شهراً على شواطىء الرمل وهم يغازلون البنات ويسبحون على الأمواج — فى هذا الوقت كان زكى لا يعرف غير المذاكرة . المذاكرة . المذاكرة . وكان هو ينجح فى المدرسة ، وكانوا هم يفشلون . ولكنهم كانوا على صحة نفسية وعلى معارف دنيوية تفوق ألف مرة معارفه المدرسية ، لأنهم كانوا يستطلعون هذه الدنيا ويفطنون إلى كثير من

أسرارها التى خفيت وغابت عن زكى . كانوا ينامون ولا يحلمون ، أو يحلمون بما ينفع من اقتحامات أو مصادفات محببة بالفتاة التى تعقبوها وصدت عنهم بعد كلمة قاسية ما كان ألذها وقعاً على نفوسهم. وبالسباحة، وبالسباق على البسكليت ، وبالقصة التى قرأوها أو رأوها على الشاشة السينمائية وبالبذلة الجديدة وبالفسحة الجميلة فى الريف

وكان بعضهم يمارس العادة السرية ولكن فى تحفظ ،مرة أو مرتين كل عشرة أيام . بل لقد قص أحدهم أنه منذ عرف فتاته التى يرافقها وينفق عليها كف عن هذه العادة لقذارتها وبعدها عن الشهامة . وكان بعضهم يدخن، كما أن بعضهم قد عرف الخمر ، ولكنهم كفوا عن التدخين والخمر لأن المتع الأخرى كانت أجمل وأروع . كانت صحتهم النفسية عالية، صحة الشباب وغرائزه ، صحة النشاط الجنسى السليم والذهنى السليم. وكانت الدنيا جميلة فى أعينهم تحوى جمال الشفق ، وجمال الشعر، وجمال القصة ، كما تحوى جمال الفتيات ، وزهوة البذلة الجديدة ومرح السباحة فى الماء ولذة الحديث بالنكات المشتهيات مع الإخوان . وكانوا يستمتعون بالوجبة الدسمة والحلوى المرينة . جسم سليم ونفس سليمة

وكانوا يتأخرون فى دروسهم أو قد يساعدهم الحظ فلا يتأخرون. ولكن المدرسة لم تكن قط عذابهم كما كانت عند زكى الذى سبقهم لأنه كان يكب على دروسه ولا يعرف أية متعة يفرج بها عن صعوباته غير أحلام اليقظة وأحلام النوم . ولذلك كانت نفسه مريضة

وقد لحظت أمه أعراضاً فيه فتحت بصيرتها ، بصيرة الأم ، إلى أنه ليس على مايجب أن يكون . فإنه فى الصباح لم يكن يترك الفراش

بل كان يبقى منسطحاً وعيناه إلى السقف. ولم يكن ينهض لطعام إذا دعى. فإذا أفطر عاد إلى الفراش وعيناه إلى السقف . فإذا دعى الى الغداء نهض وتغذى وهو سارح الفكر لا يأكل شيئاً غير الطبق الذى أمامه ، ثم يعود إلى السرير فينسطح وعيناه إلى السقف

وكانت أمه تتأمله وتحاول أن تجره إلى الحديث فلم يكن ينظر إليها وهى تحدثه . وانتهت أمه إلى القول أن هذه الحال ليست طبيعية

* * *

أى أيتها الأم المسكينة أنك لم تكونى تدرين أنه كان ينتهك نفسه فى اليوم ، وهو حبيس غرفته ، نحو سبع أو عشر مرات . ولم تكونى تدرين أنك أنت وزوجك السبب فى هذا ، بحبسه ومنعه من أى نشاط إلا المذاكرة . ذاكر .. ذاكر .. ذاكر . وأنه لم يعرف أساليب التفريج الاخرى التى كان يمارسها الشبان ، والصداقة والمزاملة مع اخوانه ، والفسحة المارحة فى شارع فؤاد ، والاصطياف الجميل على الشواطىء . وقراءة المجلات والجرائد . لقد منعتماه من كل ذلك فانحجز فى الحجرة وأنطوى على نفسه يأكلها ويفنيها

* * *

وتمادى زكى فى غياب الذهن والانسطاح على الفراش والإستسلام للأحلام . وقد أصبحت أحلام النوم عن جدته ، ولعبه ، وحديثه معها ، والجواد الذى يركبه فوق السحاب فى القاهرة ، أحلام يقظته أو ما كان يظن أنها يقظته ، لأنه لم يعد يقظاً إذ كان فى غيبوبة ذهنية دائمة

ورويداً رويداً أصبحت « لا » أو الصمت الذى يدل على معناها

شعاره ومفتاح وجوده فى الدنيا . قم كل : لا . قم البس ملابسك . لا . قم أغسل وجهك : لا . أو صمت تام لا يرد ولا ينبس بكلمة . حياة محبوسة . عواطف مكظومة . إنحصار الذهن فى المذاكرة الكريهة. أنتفاء التفريج أو التنفيس . ماذا يفعل ازاء هذا كله ؟

يفر من هذا الواقع المتعب المضجر المؤلم إلى الخيال ، وأى خيال عنده أجمل من ذكرى جدته ولعبها وحديثها معه . لقد عاد زكى فتى فى الرابعة يعيش ليتحدث فقط إلى جدته ويبعد عنه رؤية الدروس والأم والأب القاسيين . والواقع أن أمه كانت تقف أمامه وتتضرع إليه كى ينهض ويأكل ، فلا يرى وجهها ولا يسمع كلامها . وهو سعيد بهذا الذى فيه . بخيالاته . ولكنه لم يعد إنساناً ، إذ هو إستحال إلى شبح إنسان فقط ، يجترخواطره وأحلامه عن السنوات الخمس التى قضاها مع جدته قبل أن يبدأ البرنامج الذى وضعه له أبوه كى يدرس ويذهب إلى الجامعة ويخرج منها ويصبح وزيرا أو وكيل وزارة

وجاء الطبيب فطلب نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية ، إلى المارستان. وصعق الوالدان بهذا القرار . ورفضت الأسرة نقل زكى الى المستشفى. وتعلقت الأم بإبنها وأحتضنته وهى تلهث من الوله . ووقف الأب وقد جمد عقله وعميت بصيرته لايدرى علة كل هذا الذى حدث

وقال الطبيب : هذا المرض هو الشيزوفرينيا ، هو جنون يصيب الشبان المضغوطين الذين لم يطيقوا الحياة الواقعة ففروا منها إلى الخيالات والأحلام . هو الآن يحلم ويتخيل . وهناك أمل بالشفاء ، ولكنه أمل ضعيف . وفى المستشفى مرضى مضى عليهم خمسون سنة بلا شفاء

وتركهم الطبيب بعد أن أفهم الابوين أن زكى فى « نعيم مقيم » يلتذ خيالاته وتأملاته

سيكلوجية الشيخوخة

النصيحة العامة المألوفة للشباب هى أن يأخذوا بحكمة الشيوخ فى التبصر والاعتدال والتأمل والبعد عن الرعونة والمغامرة . وكل هذه بلا شك تعد فضائل فى بعض الأحوال . ولكنها ليست كذلك إذا أخذنا بحرفيتها فى كل الأحوال . فإن هناك من المواقف ما يحتاج إلى المغامرة التى تشبه الرعونة. ولنضرب مثلا بالثورات التى لا يتسع الوقت فيها للاعتدال المسرف أو التبصر البعيد . وكثير مما نعزوه إلى الشيخوخة من الفضائل إنما يشتق فى النهاية من الركود والجبن، كما أن كثيراً من رعونة الشباب أو مغامراته إنما يشتق فى النهاية أيضاً من النشاط والشجاعة

وعلى كل حال يبدو لى كأننا قد أكثرنا من النصح للشباب بالأخذ بحكمة الشيوخ ، وقد آن لنا أن ننصح للشيوخ بأن يأخذوا بحكمة الشباب. وأعظم ما يبرر لنا هذا الانقلاب أن الشيوخ السعداء هم الذين يحتفظون بمقدار كبير من نشاطهم وشبابهم ، وان يكن نشاط الذهن وشباب النفس فقط . فى حين أن الذين يكابدون أحزان الشيخوخة وأعباءها إنما هم الذين قد شاخت نفوسهم وركد نشاطهم

ولكن الذى يجب أن نذكره أن النفس والذهن ، كلاهما يحتاج إلى نشاط الجسم وحيوية الأعضاء ، إذ ليس مفر من أن تركد نفوسنا إذا ركدت أجسامنا

قد يقال أننا ، فى الشيخوخة ، نستطيع أن نهنأ بالحياة التأملية ، نقرأ ونفكر ونتفرج . وليس شك أن هذا كله حسن . فإن المداومة على الاهتمام بالصحيفة اليومية فى سن الثمانين أو التسعين تبعث النشاط فى الذهن . وكذلك الشأن فى القراءة أى الدراسة . ولكن حياة التأمل هى فى النهاية حياة الركود . متى ركدنا بالجسم ركدنا أيضا بالذهن

وهنا حكمة الشباب التى يجب أن يأخذ بها الشيوخ ، وضرورة النشاط بحيث تبقى أعضاء الجسم فى حركة العمل التى تتطلب السعى على القدمين والذهاب والإياب وتحمل المسئوليات اليومية أمام المكتب أو غير ذلك من ضروب النشاط فى النفس والذهن ، فتبقى الأهداف القديمة والمطامع السالفة والعادات المألوفة قبل الستين والخمسين من العمر ماثلة حية غير معطلة

إن صاحب المتجر أو المكتب أو المصنع الذى يكف عن الذهاب إلى مقر عمله فى الصباح ، عندما يظن أنه قد بلغ سن الشيخوخة ، يشرع فعلا فى الشيخوخة ، ويبدأ فى حياة التفرج والتأمل الراكدين بدلا من حياة العمل والتفكير النشيطين . وهو يكاد ينقطع عن الدنيا بأهدافه وأحساسه . ومثل هذه الحال تملأ نفسه غما وأسفا ، وهى جديرة بأن تنتهى به إلى ألوان مختلفة من أمراض النفس . وأولها أن يجتر ماضيه اجترارا فيذكر

ويعيد الذكرى بما حدث له قبل نصف قرن . وقد يذكر خصوماته القديمة فيبتئس بها ويتعس

وكثيراً ما ترى هؤلاء الشيوخ وقد آثروا العزلة والانفراد ، يكرهون الاجتماع والزيارات ، وعندئذ ينكفئون على أنفسهم ويحدثون أنفسهم بكلمات مهموسة أو مجهورة . ونحن نعزو ذلك فيهم إلى خرف الشيخوخة . وما بهم من خرف سوى أنهم معطلون جسمياً فأصبحوا معطلون ذهنياً

إن للعمل اليومي ، فى مواعيده ، من طاقة واستعداد ، ودراسة ومسئولية ، نظاما يحمل رجل السبعين والثمانين على أن يأخذ فى حياته بنظام آخر ينأى به الى الاستهتار فى الطعام والشراب . فهو يأكل بقدر ، وهو يدخن أو يشرب القهوة أو الشاى بقدر . يلحظ فى كل ذلك مصلحة عمله وقدرته . وهذا بخلاف الشيخ الذى عطل عن العمل فانه يستهتر فى طعامه وشرابه ، إذ ليس عنده من الواجبات ما يحمله مسئوليات تحثه على الاحتفاظ بصحته ويقظة ذهنه وسلامة عضلاته

ومن هنا سرعة الانهيار الذى نجده فى موظفي الحكومة الذين يحالون على المعاش فى سن الستين . فإن هذه السن تعد فى أيامنا من أطوار الشباب التى ننتظر فيها الصحة والنشاط . ولكن الموظف الذى يجد نفسه فجأة قد انقطع عن السعى كل صباح إلى مكتبه . وأنه لا يستقبل من يومه عند يقظته سوى الركود أو القعود على المقهى للتمطى والتثاؤب وحديث القيل والقال مع المعارف والأصدقاء ، أو « قتل » الوقت بألعاب الحظ السخيفة ، هذا الموظف لن تمضى عليه شهور بل أيام حتى يحس بنهاية حياته وأنه « زائد » على المجتمع يستهلك ولا ينتج . فتنهـــار

نفسه ثم ينهار جسمه

وأنا أنصح لموظفي الحكومة لهذا السبب بأن يستعدوا لمعاشهم بأن يتعلموا أو يمارسوا هواية ما منذ سن الأربعين . حتى إذا بلغوا الستين وجدوا فيها عوضا عن وظيفتهم السابقة ، فيبقى كل منهم على نشاطه السابق له أهداف يحيا لها وبها

يجب ألا تعني كلمة معاش مماتاً. إذ هي تحمل معنى العيش أي البقاء. ولا بقاء بغير عمل وسعي وحركة واشتباك في شئون المجتمع والانسانية والسياسة والانتاج . أي يجب على الموظف أن يهتم بالدنيا والناس والأشياء وأن تتعدد اهتماماته . ويكون منها اهتمام مفرد هو هوايته الخاصة التي يمارسها لا للتسلية ولكن للارتقاء والانتاج

يجب على الموظف ألا يرضى بأن يكون متفرجاً في الدنيا فقط بعد أن يبلغ سن المعاش

ومع أني أعتقد أن هناك تسعين في المائة على الأقل من الموظفين الحكوميين يمكنهم أن ينهضوا بأعمالهم ويؤدوا واجباتهم إلى سن السبعين بل أكثر ، فاني لا أستطيع أن أقول بهذا الرأي . لأن شبابنا في حاجة الى الوظائف الحكومية ، إذ أن أعمالنا الحرة لا تستوعبهم . والأعمال الحرة هي الصناعة والتجارة وقد حرمناهما إلى وقت قريب

وهناك ميزة للعمل الحر على الحكومي . لأن العامل الحر ، سواء أكان موظفاً أم مالكا ، يمكنه أن يبقى عاملا إلى ما بعد الستين . ولذلك يحتفظ بصحته النفسية والجسمية لأن تنظيم عمله يؤدي ، كما قلت ، إلى تنظيم حياته . وهو يبلغ الشيخوخة دون أن يشيخ . أو هو ، بكلمة

أخرى ، شيخ ولكنه ليس شائخاً

ومع التناقض فى هذا التعبير نستطيع أن نقول أننا وجـــدنا فى اختباراتنا شباناً فى السبعين والثمانين ، بل أحيانا فى التسعين، ينهضون فى الصباح المبكر ويؤدون الأعمال التى تحتاج الى قوة العضلات وصحوة الذهن . وهم فى العادة نحفاء . بل انى لا أذكر أنى رأيت رجلا سميناً قد بلغ التسعين

ومن أعظم الأمثلة الحية على شباب الشيوخ الأستاذ أحمد لطفى السيد . فانه يوشك على التسعين ومع ذلك يحتفظ بنشاط ذهنه ويؤدى عمله الحكومى، يقصد إليه كل صباح ويعود منه بعد الظهر لا يبدو عليه أى عناء أو إرهاق . وهو من حيث الجسم لا تكاد أعضاؤه تتماسك ولكن نفسه قوية عضلية . وهى تشع صحتها على الجسم . وإنى أعرفه منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، ولا أذكر أنه سمن قط أو إستكرش إذ هو كان على الدوام نحيفاً إلى حد الهزال . وقد ساعدته هذه النحافة على استبقاء شبابه ، كما أن عاداته فى العيش معتدلة بعيدة عن الإسراف الذى كثيراً ما يرهق الصحة الجسمية ، ولكن نحافة جسمه وأعتدال عاداته ليسا شيئاً إلى جنب نشاطه الذهنى وأنه يعمل كل يوم عملا يحمله على نظام الحركة والتفكير فى المسئوليات . وهنا الحياة الحية

ولى صديق آخر فى منتصف العقد التاسع من عمره هو الأستاذ عزيز خانكى . فانه يقصد إلى مكتبه كل يوم ويؤدى أعماله فى مواعيدها . وهو نشيط الذهن لأنه نشيط الجسم ، يحضر فى المحاكم ويدرس القضايا

ويؤلف الكتب ويقرأ ويناقش ويشتبك فى شئون المجتمع . هو شاب لم يشخ

ومع كل هذا الذى ذكرت عن ضرورة النشاط الجسمى والذهنى وضرورة القيام بعمل يستتبع المسئوليات ويعين المواعيد ، أحب أن أنبه إلى أن ايقاع الشيخوخة يجب أن يكون أبطأ من إيقاع الشباب . فاذا كان الشباب يستطيع الاستغناء عن راحة القيلولة مثلا نحو ساعة بعد الظهر فان الشيخ يحتاج إلى هذه الراحة أكبر الحاجة

ولكن الراحة يجب أن تكون ساعة واحدة فى النهار وليست ٢٤ ساعة فى اليوم

سيكلوجية الشيخوخة أيضاً

ظهر فى لندن كتاب جديد بعنوان «كيف تستقيل وتبدأ حياتك» للمؤلف اليانور بروكيث

وأسم الكتاب يحمل دلالة جديدة لعصرنا هى أن الناس كانوا، قبل نحو نصف أو ثلث قرن، يستقيلون من أعمالهم أو وظائفهم عندما يبلغون الستين أو الخامسة والستين. وذلك لأنهم كانوا يحسون ضعفاً أو عجزاً ينقص كفاءتهم للعمل أو تأديتهم للوظيفة. وكانوا يكفون عندئذ عن العمل أو يتركون الوظيفة وهم على إحساس بأنهم قد شرعوا يتهيأون للموت الذى قد يدركهم بعد خمس أو ست سنوات

وكان هذا الاحساس صادقاً ينهض على المشاهدة، إذ كان معظم الناس يموتون قبل السبعين، هذه السن التى عدتها التوراة أقصى ما يمكن أن يطمح إليه الرجل السعيد فى هذه الدنيا كما قال سليمان الحكيم

وعلى هذا الأساس سنت جميع الحكومات المتمدنة، ونعنى حكومات الأمم الصناعية وحدها، قوانين تنص على أن كل من يبلغ سن الستين أو الخامسة والستين له الحق فى الحصول على معاش طيلة

حياته يترجح بين سبعة وعشرة جنيهات فى الشهر سواء أكان رجلا أم امرأة . وزادت بعض الحكومات مقدار هذه المعاشات حتى انها لتبلغ نحو أربعين أو خمسين جنيها فى الشهر فى بعض الولايات المتحدة أوبعض الحكومات الأخرى مثل حكومات استراليا أو زيلندا الجديدة أو كندا

يحصل الرجل أو المرأة منذ سن الستين أو الخامسة والستين على معاش شهرى إلى أن يموت فى الثمانين أو التسعين أو المائة دون أن يطالب بأى عمل . ولكن يجب أن نذكر أن هذا يحدث فقط عند الأمم التى أعتمدت على العلم والصناعة والاختراع والابتكار واقتحام المستقبل، الأمم الثرية الصناعية

ولكن هنا المشكلة

فإن انجلترا شرعت تنفذ معاشات الشيخوخة منذ سنة ١٩٠٩ حين كان الناس يعتدلون فى التعمير ويموتون حوالى السبعين ، أما الآن فإنهم يسرفون فى التعمير ، ويصلون إلى الثمانين والتسعين والمائة بلا أقل حياء من وزير المالية

فلم يكن ينفق من ميزانية الدولة على هذه المعاشات فى ١٩٠٩ سوى نحو ٢٠ مليون جنيه . أما الآن فإن المسنين يكلفونها مئات الملايين من الجنيهات . ثم هم فى ازدياد ، لأن متوسط الأعمار كان حوالى عام ١٩٢٠ لا يزيد على ٤٠ أو ٥٠ سنة ، أما الآن فقد ارتفع فى انجلترا إلى ٦٨ للرجل و ٧٠ سنة للمرأة

لماذا يعيشون ويبلغون من العمر أرذله ؟

ومن أين تأتي الحكومة الانجليزية ، وغيرها من حكومات الأمم الصناعية العلمية الثرية ، بالمال كي تقدمه هدية آخر كل شهر للشويين من المسنين ومن دونهم ومن فوقهم ممن تجاوزوا السنين ؟

ما أغرب هذه المفارقة : أوروبا وأمريكا تعانيان مشكلة للصحة والحياة الطويلة ، وآسيا وأفريقيا تعانيان مشكلة المرض والحياة القصيرة

إنها لمقارنة بل مفارقة محزنة تلك التي نراها في مخيلتنا بشأن المسنين في مصر والمسنين في انجلترا أو أي قطر صناعي آخر

إن الموظف المصري يستقيل من وظيفته وكأنه قد استقال من الحياة ، فهو يمضي ما بقي من السنوات القليلة من عمره وهو في تخبط . يقعد على المقهى قبل الظهر ، ويشرب عشرات الفناجين من القهوة ، ويدخن في إسراف ، ويتحدث مع أصدقائه عن ذكرياته قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة كأنه هو نفسه قد أصبح جزءاً من الماضي . وهو لا يشترك في أحاديث السياسة الحاضرة لأنها تنطوي على سياسة المستقبل الذي يحس أنه غريب عنه . وهو ينام بعد الظهر فإذا أفاق فكر في المقهى . وقد يشرب الخمر ويسرف فيها لأنها تنسيه حاضره التعس

رجل المعاش تعرفه كلنا في مصر

هو سمين مترهل مستكرش سيء العناية بملابسه ، مشعث الشعر قد نبتت أعجاز لحيته . وهو يشكو

يشكو الروماتزم ، والسكليتين ، والإمساك ، والقلب

ويشكو سأمه من الحياة كأنه ليس له مكان فيها

ويشكو سوء المعاملة التي يلقاها من زوجته وأبنائه . إنه زائد غير نافع

ويشكو اسرافه في التدخين واسرافه في الطعام وعجزه عن الاعتدال

ويشكو استهتار الشباب والفتيات وأنهم لم يعودوا يبالون بالتقاليد حتى أن إحدى الفتيات في أسرته قد صرحت بأنها لن تتزوج الا من شاب تحبه . أما هو ففي أيام شبابه لم يكن يعرف كلمة الحب ، وقد اختارت أمه له زوجته . وهو حين ينهض من المقهى ويذهب الى منزله يسير مطأطئاً كأنه يمشي الى جنازته وقد تلفف بكفنه

هو ميت قد تأخر دفنه ، ولذلك لا يستحق معاشاً ، إذ هو يخدعنا بأنه حي مع أنه ليس كذلك

ولكن مع هذه الكلمات والأفكار القاسية نحس رحمة نحوه . ذلك أن أسلوب حياته الذي عاش به في شبابه قد لزمه بعد ذلك في شيخوخته، وكأن العمل الذي ينتجه أو الوظيفة التي يؤديها يخفيان عنه وعنا تفاهته . ولكنهما كانا يشغلانه فيجد الاهتمام والالتذاذ في الحياة

أما الآن، بعد زوال العمل والوظيفة، فإنه أمامنا ، تافه أمام نفسه . وهذه هي مأساته

قارن رجل المعاش هذا المصري برجل المعاش الإنجليزي مثلا

فإن هذا الثاني قد اتخذ أسلوباً للحياة أيام شبابه لزمه بعد ذلك مدة شيخوخته ، فوجد في سن السبعين والثمانين اهتمامات والتذاذاته ورياضات لا يجدها زميله في مصر

فهو أيام شبابه تعود الرياضة . ولذلك هو يلعب التنس بقوة العادة وهو فى السبعين

وفى أيام شبابه اعتاد المطالعة وشراء الكتب والاهتمام بالآراء ومناقشة الأفكار . ولذلك هو فى الشيخوخة ، بقوة العادة أيضاً، يمارس كل هذه الأشياء فى لذة ونشاط

وفى شبابه كان يقرأ الصحف ويعرض لبرامج الأحزاب ويناقش السياسة الداخلية والخارجية . ولذلك هو فى شيخوخته يمارس السياسة ويشترك فى الأحزاب .. وفق ما تعود أيام شبابه

كل هـــذه الشئون تملأ فراغه وتشغل وقته واهتمامه . ولذلك هى تستبق شبابه . فالشيخ الإنجليزى فى الثمانين لا يركد ولا يستسلم للكسل لأن شخصيته أيام شبابه هى نفس شخصيته أيام شيخوخته ، بحوافزها ومطامعها وعاداتها

إذا كانت عاداتنا فى الشباب سيئة فإنها سوف تكون أسوأ فى الشيخوخة . ومتاعب المسنين عندنا إنما ترجع فى الأغلب إلى أنه شخصياتهم التى تكونت فى شبابهم كانت ولا تزال دون الوفاء بحاجاتهم النفسية والروحية

هناك وحدة سيكلوجية بين الشباب والشيخوخة

أرجو القارىء ألا يفهم مما قلت أنى أعلل جميع عاهات الشيخوخة عندنا ، سواء أ كانت نفسية أم ذهنية أم جسمية ، بأسلوب الحياة الذى يختاره كل منا

ذلك أن هناك ظروفا مدنية وثقافية واجتماعية تتعسنا فى شيخوختنا

كما أن ظروفاً أخرى عما تضارع ظروفنا تسعد الأوروبيين والأمريكيين فاننا فى مصر مثـلاً نمرض أكثر من الأوروبيين ، لأن مدننا قذرة ، ولأن طرقنا فى طهو الطعام سيئة . ولأننا فقراء لا نحصل على مقدار البروتين الذى نحتاج إليه فى طعامنا

ومرجع ذلك كله إلى الثراء والتمدن ، ثم إلى الهندسة التى جعلت المدن نظيفة تجرى فيها شرايين المياه المطهرة . ثم إلى الطعام الوافى الذى تعرفه عند الانجليز أو الأمريكيين حين يأكلون اللحم ثلاث مرات فى اليوم

فقرنا يتعس شيخوختنا . وليس الشيخ المسن مسئولاً عن هذا الفقر ، وإنما تعود المسئولية هنا إلى أولئك المستعمرين والمستبدين الذين حتموا علينا الفقر بأن حظروا علينا الصناعة ونهبوا كنوزنا الزراعية والمعدنية

وكذلك تقـدم الطب فى أوروبا حتى كاد يشفى جميع الأمراض الميكروبية . وأوشك على أن يشفى أيضاً جميع الأمراض الانحلالية . فطالت الأعمار واستبقت الشيخوخة مقداراً كبيراً من صحة الشباب ونشاطه

تأمل أيها القارىء كيف اختلفنا

نحن نعانى فى مصر مشكلة المرض والأعمار القصيرة

وهم يعانون فى أوروبا وأمريكا مشكلة الصحة والأعمار الطويلة

ذلك أنهم يؤدون معاشاً لكل من تجاوز الستين أو الخامسة والستين .

وقد كانوا يؤدون هذا المعاش فى انجلترا لنحو خمسة ملايين مسن

ولكن الصحة تتقدم . ولذلك لن تمضي سنوات حتى يبلغ عدد هؤلاء المسنين عشرة ملايين يحتاجون إلى المعاش

وقل مثل هذا في سائر الأقطار المتمدنة

أليست هنا مشكلة ؟

حبذا هذه المشكلة نراها في بلادنا . نعم . ولكن ليس الآن ونحن في قرننا الحاضر ، إذ لن تستطيع أن تؤدي المعاشات السخية للمثويين ومن فوقهم ومن دونهم

* * *

قلت إننا لن نسعد بالشيخوخة إلا عن طريقين

الطريق الأول أن نصبح أمة عصرية صناعية متمدنة ، فيتوافر الثراء ، ونحصل به على الحسن أو الأحسن في الطعام والمسكن والهندسة المدنية . لأن المدينة النظيفة لا تقل قيمتها في الصحة العامة عن المسكن النظيف ، بل لعلها تزيد . وهذا كله من واجبات الدولة والمجتمع

والطريق الثاني هو الواجب الشخصي ، أي ما يقوم به الرجل أو المرأة نحو نفسه حتى يعمر العمر الطويل

ولكن العمر الطويل لا يعني أن تزيد الحياة سنين . وإنما هو يعني أن نزيد السنين حياة . إذ ليس هناك سوى العذاب والهوان في أن نمضي شيخوختنا مع الشلل أو الروماتزم أو الأرق أو العمى أو الصمم

وأمراض الشيخوخة ليست ميكروبية وإنما هي انحلالية . حين تعجز الكليتان أو القلب أو الكبد أو الشرايين عن التأدية الحسنة لأعمالها . ومن شأن هذه الأمراض الإنحلالية أنها تتسلل صامتة خفية . وهي في كل حالة ثمرة أو ثمرات لعادات سيئة في العيش ، مثل النهم

إلى الطعام أو الإفراط في الجهد إلى حد الإرهاق أو السهر الطويل أو التعرض للبرد أو نحو ذلك

ونحن بالطبع سنموت آخر العمر بأحد هذه الأسباب أو بغيرها، فليست هناك وقاية تامة من الانهيار الأخير ثم الموت . ولكن يجب ألا تطول مدة الانهيار كما يجب أن نصل إلى التسعين أو المائة ونحن في صحة وشباب

وأحياناً أتأمل الصحة والمرض في الشيخوخة فأنتهي إلى الإحساس بأن صحة المسنين هي حكمة، أي أنهم كانوا حكماء في عيشهم أيام شبابهم وكهولتهم . فاتجهوا اتجاهات معينة في الشباب صانت صحتهم ثم لزمتهم هذه الاتجاهات في الكهولة والشيخوخة فصانتهم بعد السبعين والثمانين

وأعظم ما يسعدنا في الشيخوخة أن نتعلم في شبابنا كيف نشغل فراغنا بغير العمل الذي نرتزق منه ، أي بهواية معينة . وقد تكون هذه الهواية هي نفسها العمل الذي نرتزق منه . وهنا السعادة العظمى

حياتهم تافهة

من أعظم الدراسات التى حفلت بها حياتى واتسع بها وجدانى صناعة التطور . فإنها أكبرت فى نظرى من شأن الإنسان وجعلتنى أنظر إلى تاريخه الماضى وأستطلع فى ضوئه تاريخه المستقبل

وأمتلىء بذلك إحساساً بعظمته وأتفاءل بتطوره القادم . وأكثر من هذا ، أن التطور جعلنى أحس خطورة حياتى وقيمتها العظيمة ، وأقارن بين هذه الحضارة التى إخترناها منذ خمس عشرة ألف سنة وبين حياة الغابة حين كنا أحراراً تصيد السمك أو تقتل الحيوان أو تقلع الجذور . ونجول فى انحاء العالم ، نصطدم بالأسد أو الأفاعى أو سائر الوحوش ونعيش فى مخاطرات متوالية تذكى عقولنا وتحد من عيوننا

كنا وحوشاً أحراراً على وجدان بالأخطار وعلى مسرات متوالية بالانتصار عليها أو بتخطيها . أما الآن فنحن ، بعد اكتشاف الزراعة على النيل منذ عشرة آلاف سنة ، قد استنمنا إلى نظام يجعلنا آمنين من الفزع . نحصل على إختباراتنا من الكتب بدلاً من الطبيعة . بل

إننا بالزراعة قد أحلنا الطبيعة إلى حقول مالية تنتج القمح والقطن، كأننا نحاسبها بالقرش والمليم

ولكنى حين أتأمل حياة بعض الناس فى هذه الحضارة أجد حقارة أو تفاهة تجعلنى أحس أن الغابة القديمة بكل ما فيها من أخطار كانت أشرف وأدعى إلى نشاط الفكر والجسم من حالهم الحاضرة. وأن الحضارة عندهم ليست كسباً وإنما هى خسارة وخسة وضعة

لقد قلت إننا فى الحضارة نحصل على اختباراتنا من الكتب. ولكن هؤلاء القارئين للكتب هم القلة، أما الكثرة فيعيشون بلا كتب. ويضيق وجدانهم بحيث لا يتجاوز أحياناً البيت الذى يسكنونه أو الشارع الذى يسيرون عليه من المنزل إلى المكتب

عرفت فى ١٩٢٠ بواباً لمبنى كبير به نحو ثمانية مساكن، وكان وقتئذ شاباً لا يتجاوز الخامسة والعشرين. وقد قضى إلى الآن أكثر من ثلاثين سنة وهو على باب هذا المبنى من الصباح حتى المساء، لا يزيد عمله اليومى على كنس السلم وعلى إجابة الأغراب عن السكان، وهل هذا الساكن قد خرج أو لا يزال بالمسكن. وكلما مررت به أقول لنفسى ألف مليون سنة؟

أجل. إن هذا البواب قد احتاج إلى ألف مليون سنة حتى أخرجته الطبيعة إنساناً له رأس يحتوى تسعة آلاف مليون خلية للتفكير. ولكنها جميعها تقريباً معطلة. مع أنها كان يمكن أن تحل مشكلات اينشتين أو تكشف عن دواء جديد للسرطان أو تهتدى إلى تأليف جديد للانحلال والتكون فى المادة

يعيش هذا البواب حياة بلا قصد ، ليس فيها برنامج . وهو من حيث الوجود البشرى من يده إلى فمه . لايعرف أنه فى أفريقيا ، وأن القارات خمس، وأن الشمس هى التى تجعل النباتات تنمو وتقيت القاهرة بالبقول كل يوم . وقد كنت أحب أن أؤلف قصة عن حياة هذا البواب . قصة حقيقية ، كيف يقضى يومه ثم كيف ينام فى ليله وما هى أحلامه وعدد الكلمات التى يعرفها ويؤدى بها أفكاره . وظنى أنها لاتزيد على مائتى كلمة . وهـــذه القصة ستكون بالطبع مملة غاية الملل عند القراء ، ولكن إذا كان سرد القصة مملاً فكيف تكون العيشة الأصلية لهـذا البواب ، وأى ملل يجب أن تحتوى ؟

ولو أن هذا البواب كان يعيش فى الغابة ، لـكان يظفر من الاقتحامات والانتصارات والآلام والاحزان بما كان يملأ حياته ويجعله يعيش ناشطاً متحمساً كأنه على مسرح يمثل درامة حافلة بالأحداث والعبر . وكان ذكاؤه يحتد وعضلاته تشتد . ولـكنه على باب المبنى قد ترهل جسماً وعقلا

وقد تفهمت حياته حتى لا أكاد أصدق أن الطبيعة قد احتاجت إلى ألف مليون سنة لتخرجها إنساناً سوياً

وليست العبرة بفقره لأنه ليس فقيراً ، بل الأغلب أن آلافاً من العمال فى المصانع والمـكاتب أفقر منه . ولـكنهم أوسع وجداناً وأعمق فهماً لهذه الدنيا منه . فإنهم يختلطون بزملائهم أو بكبرائهم ، ويقرأون أكاذيب الصحافة وحقائقها ، ويتحدثون عن الحرب القادمة ، ويسهرون على القهوة ، ويشربون الشاى مع إخوانهم ، ويلعنون التجار الجشعين ، ويتشاكون

عن الغلاء، وأحياناً يسكرون ويفرجون

أما هذا البواب فاننا قد أحلناه على باب المبنى إلى حيوان أو جماد. وهو قانع بحياته، ولكن هذه القناعة هي إجرام في حق البشر. في حق التطور. لأن حياته تافهة، حياته بلقع

وقبل نحو ثلاثين سنة، قبل أن يعم استعمال الطاقة الكهربائية، كانت مناجم الفحم في انجلترا تستخدم الجياد في نقل الفحم داخل المنجم. فكان الجواد يؤخذ من المرعى الأخضر، حيث كان النسيم يداعب معرفته، أو كانت الريح تهب عليه وتهزه في غضب، وكان يرى الشمس وظلام الليل، ويجرى ويمرح ويرفس في حياة نشطة. وكان يرى الأنثى ويصبو اليها، وكان يجر عربة من قرية إلى أخرى أو يمتطى صهوته صاحبه. ولكنه كان، بعد أن ينزل إلى جوف المنجم، يبقى فيه في الظلام الدائم نحو عشرين سنة لا يرى نور الشمس. ولا يصعد على سطح الأرض إلا بعد أن يموت

وهذه حياة تبعث السخط والغضب على الذين كانوا السبب في حبس الجواد. ولا يمكن مؤلفاً أن يقص على القارىء قصة هذا الجواد المسكين. إذ أن القصة يجب أن تسرد لنا حياة أو حيوات معينة. ولكن هذا الجواد يموت منذ نزوله في المنجم، إذ هو لا يحيا، ولكنه يجر عربة الفحم فقط

ولكن أحياناً أتأمل حياة بعض الناس فأجد الفرق بينها وبين حياة هذا الجواد ليس عظيماً. فان مساحة المنجم الذى كان يعمل فيه هذا الجواد كانت نحو ميل مربع، ومساحة الميدان الذى يعمل فيه بعض الناس لا تزيد على ثلاثين أو أربعين متراً مربعاً، وهم بهذا الاعتبار

موتى . ولو أردت أن اقص على القارى حياة واحد منهم لما قدرت .
لأنها حياة الأكل والنوم وكنس البيت والعناية بالطفل

أجل هذه هي حياة بعض نسائنا في بعض قرانا في الصعيد . فقد لقيت بعض إخواننا الصعايدة الذين كانوا يفخرون بالعرض والشرف والطهارة ، وذلك لأنهم قد اعتادوا أن يجعلوا الزوجة تبقى بمنزلها منذ عرسها إلى يوم وفاتها ، حتى لاترى رجلا ولا يراها رجل . وزوجها يحيلها بهذا الحبس إلى مكانة دونها مكانة البواب الذى أشرت اليه . لأن البواب يرى العابرين في الطريق ، وقد تقع حادثة أو ينشب شجار ، أو يقعد اليه زائر أو يتحدث إلى ساكن . أما هذه المسكينة فتبقى طيلة حياتها وهي محبوسة بالمنزل . وظنى أنها تختبل بعد سنوات من هذا الحبس ، ولا يبقى لها ذكريات تبعث على التفكير سوى أيام طفولتها وبنوتها

وظنى أننا يجب أن نسن قانوناً نجبر فيه الأزواج الحابسين لزوجاتهم على أن يأذنوا لهن بالخروج من المنزل مرة كل يوم

وإنى لأتساءل : هل احتاجت الطبيعة إلى الف مليون سنة من التطور كي تنتهى منه إلى حبس إنسان مدى حياة الزوجية بدعوى العرض والطهارة ؟

البواب، وهذه الزوجة الصعيدية، كلاهما يعيش حياة تافهة . حياة بلقع. تنخفض التفاهة عندهما إلى حد العجز عن تأليف قصة عن أحدهما ، إذ ليس لأحدهما اختبارات . لا أخطار ولا اقتحامات ولا أخطاء ولا اصابات، ولا سعادة ولا شقاء ، يمكن أن نرويها للقارىء . هي حياة بلا عبرة

وبلا دلالة . هي حياة ملغاة ، أو هي لغو الحياة

ولذلك فكرت في أن أؤلف قصة عن حياة أخرى تافهة ، ولكنها تحتوي شيئاً من الاختبارات ترفعها إلى مقام الاهتمام عند القارئ.

هي قصة شاب نشأ في عائلة ثرية في مصر، فلم يتعلم لأنه كان مدللا أو هو تعلم القراءة ولكنه استغنى عنها ، فكان لا يشغل بها فراغاته . ووقته كان كله فراغاً . فلما بلغ العشرين جعل يصيد الفتيات ويتنزه وإياهم في السيارات . ثم عرف بعد ذلك عاهات الترف ، حين تكثر النقود أو تزيد على الحاجات ، فيجد اللذة في إنفاقها على التفاهات ويعود هو بعد ذلك تافهاً يمارس التفاهة في جد وعرق

كان ينفق كل ليلة على الانغماسات الكحولية والجنسية نحو عشر جنيهات ، أي كل دخله . وكان يعود إلى بيته بعد منتصف الليل ويستيقظ في الصباح كي يتجول بسيارته أو يكالم صويحباته في التليفون . وحاولت أمه أن تكفه فكان ينهرها، ثم بعد ذلك صار يضربها حتى كفت

وماتت أمه وفرح بموتها كثيراً ، وأصبحت لياليه حمراء حافلة بالانغماس . ولم يكن يجالسه غير إخوان لهم مزاجه ولا يرتفعون على مستواه . وكان حديثهم نكات وأحاديث عن الفتيات والراقصات والهدايا التي اشتراها أحدهم لحظيته الجديدة . وقد سمن لوفرة الطعام الذي كان يأكله وللراحة الدائمة التي كان يجدها . وكانت الأحداث تمر بمصر ، مظاهرات ومفاوضات ووزارات ، ولكن كل ذلك لم يكن يصل إلى وجدانه لأنه كان يعيش بحواسه دون عقله

وأخيراً تزوج راقصة كان عشقها طويلاً ، وحملته الراقصة على

أن يشترى لها من الأحجار اللامعة التافهة الغالية ما بلغت قيمته الألوف من الجنيهات . ثم أحبت غيره وأحبها هذا الغير . وذات يوم حمل هذا مسدساً وطلب اليه أن يطلقها ، واشتبك الاثنان . وأخيراً طلقها

ثم أحب امرأة أخرى وتزوجها . وتوالت حوادث زواجه أو عشقه حتى هوت ثروته إلى ثلث ما كانت عليه . وكان قد بلغ الثلاثين ، فانقلب إلى زهد كان يعتقد أنه ديني . مع أن حقيقته أنه كان سيكلوجيا ، أى كان سأماً من الانغماس الجنسي السابق ، كان صوماً بعد تخمة وهموداً بعد جهد

وقلت نفقاته فصار دخله يتوافر . وظن الناس فيه التدين ، بل ظن هو نفسه ذلك . فكان يشترى بما يتوافر من دخله أرضاً جديدة حتى استعاد ما فقده وزاد عليه

وكان قد حصل بثرائه على احترام الكثيرين . فتزوج ابنة أحد الكبراء الذى سأل عنه وعرف انغماساته السابقة واستقامته الحاضرة ، وأحب زوجته لتدينه

ولكنه مع كل ذلك كان معوج العقل . فلم يكن يعلم من معانى الدين إلا أنه الامتناع عن الخمر أو الزنا بالراقصات . وكان لذلك لا يجد حرجاً فى مضايقة مجاوريه من المالكين الصغار حتى كان يضطرهم إلى بيع أرضهم له . وقد باعوا له وافتقروا

حياة تافهة حقا . ولكنها تزيد على تفاهة الحياة عند ذلك البواب بأنها كانت خادعة كما كانت ضارة . أوذى بها المالكون الصغار حوله وجردوا من ممتلكاتهم القليلة . وكان صاحبنا مع ذلك سادراً يظن أنه تقى صالح

أوديب صبياً

هذا الفصل هو « محضر » أو محاضر تحقيق للمعالجة النفسية أحب أن أنقل النقط البارزة فيها ، كى يقف منها القارىء على أسلوب البحث وتحرى الحقائق ووسائل العلاج كما يمارس كل ذلك المختصون فى المعالجة النفسية . وأنا أنقله عن كتاب « حقول جديدة فى المعالجة النفسية » للدكتور دافيد ليفى من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة

ولست أهدف من ذلك إلى طرافة البحث وإنما إلى منفعة القارىء فى استبصاره بالمرض النفسى ، كيف ينشأ خفياً متسللا وكيف ننبش عنه حتى نخرجه ونطرده . وأنا هنا ناقل محايد

موضوعنا هنا صبى بلغ الثالثة عشرة من عمره ، أى سن المراهقة كان إلى هذا السن متقدماً فى دروسه بل متفوقاً . كما كان على أخلاق سوية ، مهذب اللفظة والإيماءة يحبه زملاؤه كما يحبه معلموه ، يواظب على استذكار دروسه ويلعب مع سائر التلاميذ ويؤانسهم ويلتذ الحياة المدرسية والحياة البيتية أيضا

ولكن بعد هذه السن ، أى فى الشهور التى أعقبت المراهقة وهو

لايزال دون الرابعة عشرة ، تغيرت أخلاقه وساء سلوكه فتخلف فى الدراسة ، وبعد أن كان مهذباً فى كلماته وإيماءاته صار وقحاً تجرى على لسانه كلمات جنسية بذيئة بل فاحشة . كما كان يشير بيده إشارات دنسة . وشكاه زملاؤه إلى ناظر المدرسة . وهدده هذا بالعقوبات الصارمة ، وتكررت الشكاوى وتكررت العقوبات . وأخيراً فكر الناظر فى فصله من المدرسة . ولكنه قبل هذا القرار الحاسم ، رأى أن يستشير أمه ويبحث معها هذه الحال الجديدة التى طرأت على الصبى

وجاءت الأم . وجرى الحديث بينها وبين الناظر . وأنكرت هى اللغة البذيئة التى قيل لها إن ابنها يستعملها مع زملائه . إذ كانت هى لاتعرف من ابنها سوى أنه مهذب كامل . ولكنها إعترفت بتخلفه وأسفت على ذلك . وزعمت فى النهاية أن ابنها إنما « فسد » لأنه اختلط بصبيان لم يتهذبوا ، وأنه تعلم منهم عاداته السيئة الجديدة

وهدد الناظر الأم بفصل ابنها من المدرسة . وهذا أخطر ما يمكن أن يقع بصبى فى سن الثالثة عشرة . وتركته الأم وهى ترجوه أن يتريث وأن يعطى ابنها فرصة أخرى لعله يعود إلى استقامته السابقة

وعادت الأم الى بيتها . وعادت الرحمة إلى قلب الناظر

وفكر الناظر فى الفحص الطبى النفسى على الصبى . وهو يرجو أن يجد به علة يمكن أن تشفى فلا يحتاج إلى فصله

والعادة ، ولا تنساها هنا أيها القارىء ، أنه قبل الفحص الطبى النفسى عن المريض أياً كان يجب أن يفحص جسمه . إذ لعل هناك مرضاً خفياً هو الذى أحدث التخلف عند هذا الصبى . فقد كان ذكياً ثم صار بليداً . فلماذا ؟

جاء الطبيب ففحص عن الحلق والأنف ، عن الزوائد واللوز ، فلم يجد شيئاً . وفحص عن عينيه فلم يجد شيئاً ، ثم فحص عن النقص الفيتاميني فلم يجد شيئاً . ثم فحص عن الدم فوجد هناك شبهة بأن الصبي يحمل في جسمه جراثيم المرض الزهري المعروف باسم السفلس . وسأل الطبيب واستقصى ، فعرف أن والد الصبي مات بالنقطة وهو في حوالى الأربعين من العمر . وأن أمه اجهضت مرتين أو ثلاثاً قبل وفاة زوجها بدون إرادتها . فرجح من هذه الظروف أن الأب كان مصاباً بالسفلس وأنه ترك جراثيم المرض في ابنه . وأن الزعزعة النفسية الأخيرة التي ظهرت في الصبي إنما تعود إلى بدايات من الشلل الذهني الذي يبدو أحياناً في من يحملون جراثيم هذا المرض

وهنا وجد الناظر والمعلمون أنهم ازاء بصيص من نور يجب أن يتعقبوه إلى نهايته ، لعل فيه الحل لحالة الصبي . ولعلهم يجدون الشفاء القريب . وطلبوا من أطباء آخرين الفحص عن الدم

ولكن هذا الفحص الثاني أوضح لهم أن الصبي برىء من هذا المرض الزهري براءة تامة . وهنا نفض الجميع أيديهم من شبهة المرض الجسمي ، أي مرض السفلس

وعاد البحث إلى المرض النفسي

وجاء أولهم ، أول الأطباء النفسيين ، وبحث وفحص

وانتهى إلى تقديم تقرير قال فيه أن التفسير لتخلف الصبي واضح حين أخذت البلادة مكان الذكاء عنده ، فقد كان الصبي إلى سن الثالثة عشرة قوى الذاكرة يفكر بذاكرته ، وكانت دروسه كلها إلى هذه السن

استذكاراً فقط، فلما ارتقى إلى الصفوف العليا حيث الدروس تحتاج إلى التصور أكثر مما تحتاج إلى الاستذكار قصر وتخلف، فالمسألة إذن طبيعية، فإنه وصل إلى حدود ذكائه وليس له علاج

ولكن هذا اليأس لم يرض أحداً : لأننا إذا فرضنا أن التخلف طبيعي، فكيف نفسر البذاء والفحش في الكلمات والإيماءات الجنسية الوقحة ؟ وهي كلمات وإيماءات لم يكن يعرفها هذا الصبي قبل الثالثة عشرة من عمره

وأعيد الفحص النفسي على يد طبيب آخر

وانتهى هذا الطبيب الآخر إلى هذه المقدمات والنتائج :

هذا الصبي هو وحيد أمه، أي أنه نشأ مدللا، لم يصدم قط في طفولته بما يصدم به الطفل حين يجد له أخوة في البيت، وكان لهذا السبب مهذباً يبتسم ويأتمن الدنيا التي رسمتها له أمه في طمأنينة وسلام. فلما ذهب إلى المدرسة وجد اجلافاً كباراً من التلاميذ يعتدون عليه، كما وجد حركة وصخباً. فدافع عن نفسه بالكلمات والايماءات البذيئة لأنها تكسبه سيطرة سهلة. ولو أن هذا الصبي كان قد أرسل إلى مدرسة خاصة، من مدارس الأثرياء حيث يجد في الوسط الجديد ظروفاً تشبه وسطه القديم في البيت لما تخلف في الدراسة ولما لجأ إلى البذاء والفحش

ولكن هذا التفسير لم يقنع احداً . إذ هو تفسير سطحي واضح السطحية

وجيء بالطبيب الثالث. وبحث وفحص

وانتهى هذا إلى القول بأن بالصبي بداية شيزوفرينيا . ويعنى هنا المرض أن المريض ينفصل من الدنيا ، نفسياً ، انفصالا تاماً . أو كالتام . فيهمل الواقع ويستسلم لخيالاته وأحلامه . وذلك لأنه يكره الواقع ولا يطيقه

وإنما كره هذا الصبي الواقع لأنه خرج من بيته وهو مدلل عند أمه لا يجد أية صعوبة فى الدنيا . كل شيء وفر له . ووضع فى مدرسة يجد فيها الصدمات تلو الصدمات من الدروس الى المعلمين إلى الزملاء الأجلاف من التلاميذ . فشرع يتخيل ويحلم . أى شرع يتكاسل ويتثاءب . وربما ينتهى بالانفصال التام من الواقع ... أى الجنون

ولكن الام والناظر والمعلمين وسائر الاطباء النفسيين لم يقتنعوا بهذا التفسير بل عدوه سخافة ، لأن الشيزوفرينيا لا تصيب الصبيان لمثل هذه الأسباب الصغيرة بل التافهة . وفى كل إنسان منا قدرة على التكيف للأوساط الجديدة إذا لم يكن الاختلاف بينها وبين الأوساط السابقة كبيراً فادحاً

وجيء بالطبيب الرابع . فبحث وفحص وانتهى بأن عند الصبي « مركب نقص » ذلك أنه نشأ وحيداً فى نعومة ورفاهية وسهولة . ثم فوجيء بوسط المدرسة وما فيه من خشونة ومشاق وصبيان كبار فأراد أن يتعوض عن نقصه بوقاحة اللفظة وفحش الايماءة

ولكن هذا التفسير لم يقنع احداً أيضاً

وأخيرا جاء الطبيب الخامس ، جاء وهو يسير بخطوات كأنها وثبات من المرح والغبطة ، وهو يقول : « وجدتها » !

ماذا وجد ؟ وجد « مركب أوديب »
والتفتت العيون وانتبهت العقول ... الولد يعشق أمه

قال الطبيب : إن الصبي كان سوياً إلى سن المراهقة حين شرع بعد ذلك فى النشاط الجنسى الإنفرادى ، يقفل على نفسه الغرفة ويستسلم للخيالات الجنسية . ويكاد جميع الصبيان يفعلون ذلك فى هذه السن . ولكن الذى وجده هذا الطبيب عند هذا الصبي أن خيالاته كلها وقت هذا النشاط كانت ترتكز فى أمه . والصبي ينكر ذلك حين يكون فى وعيه . ولكنه حين تسلط عليه الاسئلة وهو فى الاسترخاء ، أى حين يستسلم لعقله الباطن ، يعترف بأن أمه هى موضع نشاطه الجنسى الانفرادى . وأخذ الطبيب يشرح :

وضعت الأم ابنها قبل ١٣ سنة . وكان عمرها وقتئذ ٢٢ سنة شابة حلوة ، تضم الطفل إلى صدرها فيجد الطراوة والنعومة ، وفى كل طفل نوازع جنسية مبهمة تعم الجسم كله تقريباً ثم تتحيز مكانها المعروف بعد ذلك فى سن المراهقة . ولما مات الأب رأت الأم فى ابنها « رجل البيت » الذى يقوم مقام والده . وكانت أيام والده تقدم له فطوره وهو فى السرير ، فلما مات والده صارت تفعل مثل ذلك مع الإبن . أليس هو الذى أخذ مكان أبيه فى البيت ؟

ولما بلغ الصبي سن المراهقة وجد أن قامته تعلو قامة أمه . كما لو كان زوجها وليس ابنها

ذكريات الطفولة ، ذكريات النفس ، قد انتعشت أيام المراهقة ، ولكن ماذا فى كل هذا ما يلقى شعاعاً على حالته الحاضرة فى تخلفه عن دروسه وفى غرامه بالكلمات والايماءات المفاجئة التى حلت ناظر

المدرسة على التفكير فى طرده من المدرسة ؟

الصبي ابن وزوج . هذه حالة لا تطاق

هو بين حب وكفاح : حبه لأمه الذى لا يقدر على رده ، والذى يتضح له من خيالاته وقت نشاطه الجنسى الانفرادى ، وكفاحه حين يحاول أن يطرد من ذهنه هذا الحب الذى يعرف أنه دنس ونجاسة ، وأن علاقته بأمه يجب أن تقتصر على الاحترام

والصبي فى عجزه يحاول فى تعب وحيرة أن يحل اللغز

وهو يحله بأسلوب الأطفال أو الصبيان : فإنه يدافع عن نفسه بكلمات فظة بذيئة عن الشؤون الجنسية

وإذن هو فى اختلاط ذهنى يعطله عن الدرس . وهو فى بذاء جنسى يدافع به عن موقفه السرى

ولكن ما هى نصيحة الطبيب هنا بعد هذا التشخيص ؟

ينصح الطبيب بإرسال الصبي إلى مدرسة داخلية عدة سنوات حتى ينسى صورة أمه ، أو ينصح للأم بأن تتزوج وتعقب له أخوة ينزعون منه موقف التدليل السابق الذى أدى إلى إحساسه الجنسى الحاضر

وإلى هنا أقف ، ولا أعلق . لأنى أحب أن يختمر هذا الموضوع ، كما نقلته فى أمانة ، فى ذهن القارىء بلا تدخل منى . وعلى القارىء أن يذكر أن البؤرة فى سيكلوجية فرويد هى « مركب أوديب » أى حب الصبي لأمه حباً جنسياً

وأنا هنا ناقل محايد لا أكثر

الخمر والمخدرات الاخرى

جاءنى (فى يناير من ١٩٥٦) خطاب مسهب اجتزىء منه ما يلى :

« .. وأنا شاب فى الثامنة والعشرين من عمرى وجندى فى الجيش متزوج منذ سبعة أعوام ولى ثلاثة أولاد ، وقد أدمنت على تعاطى الأفيون منذ خمسة عشر عاما ، وكل نقودى تذهب فى هذا المخدر الملعون الذى تعلقت به من رفاق الصبا . وعندى رغبة شديدة جداً فى التخلص منه ولكننى لا أستطيع مطلقاً التخلص منه ولو ليوم واحد . وأنا أحب زوجتى وأولادى جداً ومن أجل هؤلاء أريد أن أتخلص منه فأرجو أن تدلنى ياسيدى الكاتب العظيم على الطريق الذى أسلكه . وقد التجأت إليك وأملى عظيم فى أن تهدينى إلى الطريق الذى أسلكه فى التخلص من هذا الداء . وهل هناك أمل فى أن أتخلص من هذا المخدر علماً بأنى لا أقوى على البعد عن أولادى بدخول مستشفى ، وإنى على استعداد لتنفيذ كل ما تراه لكى أعود إلى حياة جديدة .. »

هذا واحد من عشرات الألوف الذين يتعاطون المخدرات . ومع أننا قد أوجـدنا قوانين قاسية ، بل غاية فى القسوة ، لمعاقبة المتجرين بالمخدرات والمتعاطين لها ، فإننا ما زلنا نجد لهذه التجارة سوقاً سوداء فى أنحاء بلادنا . وهذا برهان على أن قسوة القوانين لاتجدى فى الودع، وإنما المجدى هو أن نبحث عن جذور الجريمة ونقتلعها من مكانها

وجذور الجريمة هنا أننا جميعاً فى مجتمعنا المتمدن نكاد نعيش على أعصابنا مرهقين متوترين ، ونحتاج إلى المنبهات والمخدرات . ونحن نتناول منها القهوة والشاى والدخان والخمر . وجميعها مخدرات أو منبهات تنعش الجسم أو العقل أو تخدره بعض الوقت .وحكومات العالم المتمدن كله لا تعارض فى استعمالها

ذلك أن حياتنا الاجتماعية العصرية تحتوى الكثير من التوترات التى لم يكن يعرفها أسلافنا فى بيئاتهم الريفية المطمئنة . كما أننا نخلو من إيمانهم المطلق بالقدر ولا نرضى بالقناعة التى كانوا يرضونها . فإننا نحيا بمواعيد ، ونصادف مخاطر ، ونطمح ونقلق . ولذلك نحتاج إلى مخدر أو منبه . الأول يهدئنا فننسى همومنا والثانى ينبهنا فنتحمل همومنا

وجميع الأمم الأوروبية تشرب الخمور فلا تحتاج إلى المخدرات مثل المورفين ، أو الكوكايين ، أو الهيرويين . وهى تبيع الخمور رخيصة فيجد فيهـا الفقير مثلما يجد الثرى مخدراً حسناً يغنيه عن المخدرات الفاتكة

قد يقال إن إدمان الخمور يؤذى . وهذا صحيح ، ولكن الإدمان وحده هو المؤذى . أما الاعتدال فلا يؤذى . بل الأرجح أنه ينفع

شارب الخمر خاصة بعد سن الخمسين والستين . لأن الخمر تبسط الشرايين في حين أن القهوة والشاي والدخان تقبضها ، ومن مصلحة المسنين أن تكون شرايينهم على الدوام منبسطة يجري فيها الدم، ويصل إلى الانحاء التي كان يمكن ألا يصل إليها بسبب تصلب الشرايين الذي ينشأ عادة في الشيخوخة ويجعل مسير الدم شاقاً أو قليلا

وريموند بيرل في كتابه « الكحول » يؤكد أن الخمور تطيل الأعمار إذا تنولت باعتدال . وهذا هو اختبار جميع الأمم، حتى قرنـا التي يكثر فيها الإدمان المضر يكثر فيها أيضاً المعمرون بعد الخمسين

ونحن تجاورنا سوريا ولبنان وتركيا ويونان وكلها تقريباً ـ حتى على المنع بالقانون ـ تزرع الأفيون والحشيش ، ولكن الفلاحين الذين يزرعونهما لا يتعاطونهما لسبب بسيط . هو أنهم يشربون الخمور التي تباع في بلادهم رخيصة . وليس في الدنيا أسهل من صنع الخمور . ولذلك يصنعها هؤلاء الفلاحون ويشربونها ولا يوجد بينهم من يتعاطى الأفيون أو الحشيش اللذين يزرعونهما

يجب أن نجابه الحقائق بلا عبث أطفال ، ولنفكر تفكيراً عضلياً

الحقائق إن حياتنا مليئة بالقلق ونحن نحتاج إلى ما يرفه عنا . وإذا كان قلقنا خفيفاً فإننا نقنع بالقهوة والشاي والدخان . ولكن إذا كان هذا القلق مرهقاً ، حين نخشى مثلاً الإفلاس في مضاربات البورصة أو نشك في نجاحنا في عمل معين . أو نخاف على أبنائنا أو أنفسنا عن مرض ، أو نتوقع معاكسات ، أو تداخلنا شكوك بشأن صحتنا ، أو حين تضطرم الغيرة من المنافسة القاتلة في نظامنا التجاري الاقتنائي ،

فى كل هذه الحالات نحتاج إلى ما يخفف عنا توترأتنا بمخدر والخمر هى خير المخدرات

وأنا أكتب هذه الكلمات بعقلية مدنية لا شأن لها بالأديان . وقارىء كلماتى إذا كان متديناً متحمساً لدينه يستطيع أن يهملها : ولكنى أحب مع ذلك أن أنبه إلى أن كثيرين من رجال الدين يستطيعون ، كما هو شأنهم على الدوام ، إيجاد مخرج بالتأويل الحسن لمصلحة الصحة العامة

ولذلك أعتقد أنه يجب ، وجوباً قاطعاً ، على حكومتنا أن تيسر للشعب شرب الخمور بأن تبيح صنعها وبيعها وإيجاد الحانات ، مع الرقابة الدقيقة ، حتى تصنع نقية خالية من الشوائب المؤذية . ولكن أعظم وسائل التيسير أن تباع رخيصة

وعندما تصبح الخمور صناعة مصرية عامة فإننا يمكننا أن نزرع نحو ربع مليون فدان أو أكثر من الكروم ، تستخدم نحو ربع مليون عامل فى زراعتها واستخراج الخمور منها . بل نستطيع أن نصدر من الخمور ما تبلغ قيمته ملايين الجنيهات للأقطار الأوروبية التى لا تنضج فيها الكروم كما تنضج فى شمسنا وعلى أرضنا

ثم فى الوقت نفسه لا نخشى الأخطار المهلكة من الأفيون والمورفين والكوكايين والهيروين والحشيش . وأرجو القارىء ألا يعتقد أنى هنا جرىء مخاطر . فإن الخمور تباع فى كل مكان فى مصر ولكن للأثرياء فقط ، وذلك لارتفاع أثمانها . أما الفقراء فيعجزون عن شرائها . وليس هذا عدلا

فنحن نجيز بيع الخمور للأثرياء الذين يستغنون بها عن المخدرات

ثم نعاقب الفقراء لأنهم يشترون المخدرات المهلكة بدلا من أن نرخص أثمان الخمور حتى يشتروها ويشربوها كما يشربها الأثرياء

لو أن الخمور كانت تباع فى مصر رخيصة وفيرة لما شق هـذا المسكين الذى شكا إلى تعاطيه الأفيون . وهناك آلاف مثله يعانون مثل نكبته التى لا تعود نتائجها على شخصه وحده بل أيضاً على زوجته وأبنائه

ولست ، أخيراً ، أنكر أن ما تعانيه من قلق نستطيع أن نتخلص منه بالتحليل النفسى . ولكن مثل هذا العلاج يعد ترفاً لا يطيقه غير الأثرياء . إذ هو يتكلف كثيراً

والخمور هى ، كما قيل ، صابون الهموم . أى علاج للقلق . وصحيح أنها ليست العلاج الأمثل . ولكنها خير من جميع المخدرات الأخرى . وإذا كانت توتراتنا الاجتماعية تطالبنا بالهروب منها بمخدر ما . فإن الخمر هى خير المخدرات

وأحسن ما فى الخمور أنها لا تطالبنا بزيادة الجرعة ، فإذا كنا فى سن الخمسين مثلا نتناول ثلاثة كئوس ونكتفى بها ، فإننا نبقى على هذه الجرعة عشرين أو ثلاثين سنة بلا تغيير . وهذا خلاف ما يحدث فى المخدرات الأخرى التى نفتأ نستزيد منها حتى نبيت ضحاياها

لقد جربت أمتان عظيمتان من أعظم الأمم المتمدنة فى العالم تجربتين تستحقان التفاتنا فى صدد هذا الموضوع

الأمة الأولى هى الولايات المتحدة التى منعت الخمور منعاً شاملا وباتاً أكثر من عشر سنوات ، فكان كل من يصنعها أو يبيعها يعاقب

بأقسى العقوبات . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت انتشار المخدرات المهلكة الأخرى ... الأفيون والحشيش والهيروين والكوكايين والمورفين . وكان أيضاً بيع الخمور السيئة ، بل السامة ، التي يصنع كحولها من الخشب

وعادت الولايات المتحدة ، وهي نادمة ، إلى إباحة الخمور

هذه تجربة. والتجربة الثانية قامت بها حكومة سويد

فقد حددت سويد بيع الخمور، وجعلت الحانى - البائع للخمر في الحانة - موظفاً حكومياً له حق الامتناع عن البيع إذا وجد أن الشارب قد ثمل، كما جعلت بيع الخمور بالبطاقات. ثم ماذا ؟

ثم انتهت إلى أن جميع هـذه القيود لا تجدى لأن شريب الخمر يستطيع الحصول عليها بألف طريقة وطريقة، فألغتها ، وأصبحت الخمور مباحة لجميع أفراد الشعب

وهنا ذكرى . ففي حوالى سنة ١٩٢٠ كان شبابنا قد انغمسوا في الكوكايين المخدر المهلك فسننا قانوناً لمعاقبة المتجرين به. وكان الأجانب المقيمون في بلادنا لا يزالون يستمتعون بامتيازاتهم ، وكان من هـذه الامتيازات ألا يعاقب أحد منهم على عمل لا يعد جريمة في بلاده . ووجدنا ، وهنا العبرة ، أن كثيرين من الأجانب المتجرين بالمخدرات عندنا لا تمكن معاقبتهم لأن بلادهم لا تعاقب على هذه الجريمة . ولماذا لا تعاقب ؟

لأن مواطنيهم يشربون الخمور ويقنعون بها ولا يعرفون المخدرات الأخرى، ولذلك لم تنص قوانينهم على عقوبة لتجارة لا يعرفونها

هنا تجربتان تحثان على التفكير ثم على العمل

إني أعرف، بل أؤمن، بأن المستقبل سيؤيدني. ولكن لماذا لا نبدأ من الآن؟

مع كل ما ذكرت عن الخمور والمخدرات أحتاج إلى أن أذكر أيضاً للقراء أن الرغبة فيها جميعها تعود إلى مركبات وتوترات. وأن الرجل السليم، الذي يسلك في الحياة سلوكاً سليماً ينأى به عن القلق والخوف، وإحساس النقص «بجميع أنواع النقص»، هذا الرجل لا يحتاج إلى خمور أو مخدرات. بل أحياناً لا يحتاج حتى إلى القهوة والشاي والتدخين. وكل منا يعرف الناس الذين امتازوا بهذه الميزة

ولكن أكثرنا ليس على هذه الحال

ثم لست أنكر أننا نستطيع أن نعالج، بالتحليل النفسي، المدمنين على الخمور أو المخدرات. وذلك بأن نستخرج منهم العقد الدفينة التي حملتهم على أن ينشدوا السعادة بالنسيان، أي الهروب، وبأن نحملهم على أن ينشدوها بالوعي والتعقل. وفي مجتمع سليم لا يبعث على القلق والخوف نستطيع أن نجد السلام النفسي يعم جميع الأفراد. ولكن للأسف لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا الاقتنائي الراقي القائم على المباراة القاتلة التي تولد الغيرة والخوف، لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا هذا سليم

والخمور هي أقل المخدرات إيذاء للنفس والجسم. وجميع المتمدنين يشربونها في اعتدال، وبأسلوب متمدن لا يجعل منهم حيوانات، ولا يعتم عقولهم ويفسد نفوسهم كما هو الحال في أولئك الذين يتناولون المخدرات. وجميع الأمم التي عرفت الخمور والمخدرات أجازت الأولى

ومنعت الثانية . وقد فعلت ذلك حكومتنا ، لليقين الثابت بأن الخمور، مهما تجاوز مستعملوها حدود الاعتدال، فإنهم لا يزالون أقل تعرضاً لخطرها من أولئك الذين يستعملون المخدرات . نحن نبيح بيع الخمور فى مصر ، ولكننا نعاقب بالسجن المؤبد أولئك الذين يبيعون المخدرات . ونحن نبيح لكل مصرى تناول الخمور إذا كان قادراً على أداء أثمانها الباهظة، ولكننا نعاقب من يستعمل المخدرات بالسجن خمس أو عشر سنوات

وفى هذا برهان واضح على أننا نخشى خطر المخدرات ولا نخشى خطر الخمور. ولا أعتقد أن هناك من لا تهز ضميره هذه العقوبات القاسية التى يلقاها المتجرون بالمخدرات ومتناولوها . وكان يمكننا أن نستغنى عنها لو أن الخمور كانت رخيصة متاحة للحشاشين والأفيونيين . وليس هذا رأيى وحدى وإنما هو رأى جميع رجالنا الذين يكافحون المخدرات فى بلادنا أيضاً

كيف نتعلم السعادة

تعلمها بأن نسعد الناس كما نسعد نحن . وذلك الذى يستهلك سعادته دون أن يشرك فيها غيره لن يحصل على كل ما يستحق أو يطلب منها . ذلك لأن الأنانية وحدها لا تسعدنا ، إنما الذى يسعدنا أننا نحس أننا مشتركون مع غيرنا

وقد يكون هذا الاشتراك شخصياً حين يسعدنا مثلا أن نسعد أمهاتنا أو أبناءنا أو أصدقاءنا . أو حين نسعد طفلا يتيماً أو أسرة بائسة . ولا تزال فى ذهنى صورة سيدة أرملة مات زوجها ولم يعقب . فتبنت عملا خيرياً هو العناية بمعهد للصبيان اليتامى كانت تهتم بهم وتتعب وتعرق من أجلهم كما لو كانت أمهم التى تسعد بسعادتهم . وكانت سعيدة حقاً

وهناك نوع آخر من السعادة لا نعرف فيه شخصاً معيناً أو أشخاصاً معينين نسعدهم ونسعد بسعادتهم . وذلك حين نحس اندغامنا فى قوميتنا ووطننا ، أو فيما هو أكبر من ذلك ، أى الإنسانية . فنخدم مبدأ وندعو إلى مذهب ، ونكافح ونتعب لأننا قد رسمنا حالا مثلى للوطن أو للانسانية نهدف إلى تحقيقها ، ولا نبالى ما نلاقى من آلام فى سبيلها

هذه هي السعادة الكبرى التي لا نبالي أن نفقد سعادتنا الصغرى في سبيلها . فالهموم الشخصية مثل الأثراء ، والنجاح ، وتحقيق الملذات الشخصية ، كل هذا لا قيمة لها عندئذ في جنب هذا الأمل الكبير الذي يغمرنا

وعندما نصل إلى هذه الحال العالية يكون لارتقاء الصين ، أو انتصار السلام ، أو ظهور دواء للسرطان ، أو هزيمة الجهل والفقر والمرض في مصر ، أو زوال الاستعمار ، أو نحو ذلك ، ما يملأنا سعادة لا تقدر بجانبها أية سعادة شخصية أخرى . وعندئذ نفكر بالعقل العام والاعتبارات العالمية

ولكن يجب أن تتدرب على السعادة منذ طفولتنا . التدريب الذي يفهم منه الصبي والشاب كيف يتجاوز شخصه إلى أمه . ثم بعد ذلك يتدرب على سعادة أرفع وأكبر . وهي كيف يتجاوز بحبه أسرته إلى وطنه . ثم إلى العالم ، أي إلى الإنسانية

ألف الدوس هكسلي الأديب الانكليزي (الأميركي الآن) كتاباً عن الميسكالين

والميسكالين مادة مخدرة تستخرج من جذور الككتوس الذي نعرف من أنواعه في مصر «التين الشوكي» . ولكنه يختلف عن المخدرات، كما يزعم الدوس هكسلي الذي جربه جملة مرات

ذلك أن المواد المخدرة تخدر عقولنا وأجسامنا معاً . أما الميسكالين فيخدر الجسم فقط . ويجعل العقل على يقظة كبيرة . ولكنها ليست يقظة التفكير المنطقي وإنما هي يقظة وجودية حتى لنرى النور أضوأ .

والزهر أنضر . والإحساس بالرضى كاملا . وهذا مع استرخاء يجعلنا سعداء

ونعنى هنا السعادة المصنوعة ، المجلوبة . بل السعادة الزائفة

ويقول الدوس هكسلى أن هذا الميسكالين يمتاز على جميع المخدرات والخمور من حيث أنه لا يطفئ العقل . وأيضاً لا يضر

وواضح أن الرجل السعيد حقاً ، الذى تنبع السعادة من قلبه كما لو كانت إشعاعاً نفسياً ، لا يحتاج إلى الخمور أو المخدرات أو الميسكالين . وكلنا يعرف هؤلاء السعداء الذين لا يحتاجون حتى إلى فنجان من القهوة أو الشاى فضلا عن المخدرات أو الخمور

وقد كان برنارد شو كذلك

كان كذلك لأنه كان سعيداً بأن أسعد غيره . وكان سعيداً أيضاً بأن اعتنق الاشتراكية منذ شبابه وجعل منها كفاحاً لخير الإنسانية . فأصبح إطار نفسه العالم الكبير ، وليس شخصه الصغير . كما أنه كان فناناً يلتذ صناعته ولا يسأمها

وكثيرون منا قادرون على ذلك إذا تدربوا على الحب والخدمة ، وإذا اعتنقوا المذاهب الإنسانية التى تغمر نفوسهم بل تغنى فيها نفوسهم، ولكن منا من يعجزون عن ذلك أيضاً . ولذلك يلجأون إلى الخمور أو المخدرات

كثيراً ما أتأمل السعداء الذين ، كما قلت ، تنبع سعادتهم كما لو كانت إشعاعاً من نفوسهم . فأجد فيهم هذه الصفات التالية :

إنهم غير أنانيين . فإن الأنانى الذى يتعب كى يثرى ويقتنى ليس

سعيداً لانه فى الأغلب يحيا فى جو من البغض يثير فى نفسه أيضاً بغضاً فلا يجد ذلك الحب الذى يستمتع به غير الأنانيين . ثم ان انانيته لا تعرف حدوداً فهو دائم الإهتمام والهم ، يحاول الزيادة فى الاقتناء . مثل أحد الأشخاص فى قصة لتولستوى ما زال يقتنى ويثرى حتى خطر له أن يخرج كى يعرف حدود أرضه الواسعة . فشرع يسير فيها ، ويشترى زيادة عليها كلما استراح فى مكان منها ، حتى مات قبل أن يصل إلى نهايتها . وقل أن تجد رجلا ثريا مفرطاً فى الثراء فى عصرنا وظروفنا إلا وهو مريض نفسياً وجسمياً : لأن مشاكل الاثراء كثيرة مرهقة لا يتحملها من يفرط فى مطامعه

ولكننا نجد السعداء حيث نجد الحب للغير ، وحيث الإنسانية والفن والرسالة ، فالأم التى تحب أبنها سعيدة بهذا الحب . ولكنها تبتئس إذا جعلت هذا الحب انانية . كأن ابنها بعض مقتنياتها التى تخشى ضياعها حتى ليعود اهتمامها به هماً وقلقاً . وهى تحدد طاقاته وتحول دون نموه النفسى والعقلى بهمها وقلقها

والفنان سعيد بفنه لأنه يرتقى به ويجد فيه الجمال أو الكفاح المنشود

وصاحب الرسالة سعيد برسالته . وهو يكبر بها وينضج مهما استهلكت من قواه ومهما عانى من فقر وحرمان بسببها

ورجال المذاهب والمبادىء سعداء أيضاً لأنهم يهدفون منها إلى خير الإنسانية

وخلاصة القول أننا حين نهدف إلى السعادة يجب أن نتجاوز نفوسنا وأشخاصنا وأنانياتنا إلى ما هو أعلى منها جميعا

الرقص

لكل إنسان شخصية جنسية هى دليل مكانته من الجنس الآخر . فقد يكون أحدنا مربوكاً خجلا فى حضرة المرأة - أو العكس - أو قد يكون لبقاً رشيقاً . وهناك احترام أو احتقار نخص بهما المرأة أو الرجل لسلوك أحدهما فى حضرة الآخر . والرجل الذى يطمح إلى شخصية محترمة لا يمكنه أن يرضى بموقف الخجل والاضطراب والخرس فى حضرة الجنس الآخر . لأنه يحس أن له كرامة جنسية وأنه محتاج إلى احترام المرأة أيا كانت، غريبة أم قريبة كهلة أم شابة . وهو حين يحس الاحتقار لنقص فى شخصيته يضطر إلى الانزواء الذى يؤثر فى نجاحه واتجاهه بل أحياناً فى اتجاهه الجنسى

وحالنا فى مصر سيئة كل السوء من هذه الناحية ، وعواقب هذه الحال أسوأ . فإن الانفصال العام بين الجنسين يحيلنا فى بعض الظروف إلى أجلاف فى الكلمة والإيماءة والسلوك العام . وقد يكون الشاب من أقوم الناس أخلاقاً وأسماهم رقياً ولكنه ، للانفصال السابق مدى حياته ، لا يعرف كيف يقعد إلى فتاة . فإذا حان وقت

الخطبة للزواج عمه اضطراب وخجل يجعلان الفتاة تحتقره وتؤثر عليه من هو دونه فى الأخلاق والرقى ، لأن لهذا شخصية جنسية حسنة . أو قد يحدث العكس ، أى يكون النقص فى الفتاة حين تقعد إلى خطيبها فيرى فيها جمالا ، ولكنه الجمال الخشبى ، لأنها صامتة ساكنة قد شملها الخجل والجمود

ويجب أن نصرح هنا بكلمة مؤلمة ، هى أن هذا الإضطراب الذى يعرو الشاب أو الفتاة وقت لقائهما إنما ينشأ من الانفصال التام السابق. لأن هذا الإنفصال قد ملأ الذهن فى الأغلب بخواطر تناسلية . ذلك أنه حين تنعدم الصلات الاجتماعية بين الجنسين ، فلا يكون لقاء فى حفل ، ولا مناقشة فى ضيافة ، ولا جدال فى ناد ، ولا معاملة فى تجارة ولا مؤانسة فى زيارة ، ينحدر الخيال إلى الأصول البيولوجية الأولى. فالرجل ذكر فقط . والمرأة أنثى فقط . والاضطراب يحدث عند الاجتماع ، عقب الانفصال السابق الطويل . فيكون، أى الاضطراب، برهاناً على هذا الخيال البيولوجى التناسلى الذى لم يجد قط ما يهذبه من علاقات اجتماعية أخرى

ويجب أن نعالج هذه الحال السيئة فى مجتمعنا بالتعليم الإبتدائى المشترك ، فلا تكون مدارس خاصة للبنين وأخرى خاصة للبنات بل يتعلم كلاهما فى مدرسة واحدة . تقعد البنت إلى جنب الصبى . ونستطيع أن نجعل هذه الحال عامة فى المدارس الإبتدائية وفى الجامعة. أما المدارس الثانوية فلا بأس من الفصل ، لأن ثورة المراهقة تجعل الاجتماع خطراً . كما يجب أن نكثر من اجتماعاتنا المنزلية ، وفى النادى

الرياضى أو الثقافى ، وسائر الاجتماعات التى يجتمع فيها الجنسان، فينشأ عندنا جو متمدن يزيل عن الشاب والفتاة ذلك الإرتباك أو الخجل الذى يسودهما فى بعض بيئاتنا فى الوقت الحاضر . وبذلك تتكون لهما الشخصية الجنسية الممتازة ، فالرشاقة ، والصراحة ، والسعادة

ولكن إذا كانت الحال قد بلغت فى السوء مدى بعيداً فإنها عندئذ تحتاج إلى علاج حاسم . وهذا العلاج هو الرقص الذى يعد مرانة ناجعة لإزالة « مركب النقص » الناشىء من رذائل التربية الإنفصالية السابقة . فالشاب الخجول المرتبك عندما يتمرن على الرقص — ويجب أن يكون التمرين طويلا ومختلفاً — يجد أنه قد حقق فى نفسه تغييراً سيكلوجياً ، وأنه يحس كرامة جنسية جديدة وأنه رشيق لبق . وكل هذا مما يعينه على النجاح فى الحياة المدنية ، لأن الشاب الذى يحس نقصاً فى كرامته الجنسية يحس أيضاً مثل هذا النقص فى كرامته الاجتماعية ، ويبقى على الدوام قلقاً قد يقع فى شذوذات جنسية

والرقص — زيادة على ما ذكرنا — من أنجع الوسائل لمعالجة هذه الشذوذات الجنسية ، لأن الرجل الذى يرقص مع إمرأة يتجه الإتجاه الجنسى الصحيح بلا انحراف أو زيغ إذ من غير المعقول أن يلتفت إلى غير المرأة فى الخيال أو الواقع

وهذا كسب كبير لكثير من الشبان الذين تقدمت بهم السن فى العزوبة فزاغوا وانحرفوا . وفى مصر يشيع الإنحراف الجنسى أكثر مما يشيع فى أوروبا للانفصال القائم بين الجنسين، لأن الخيال لم يدرب على الجنس الآخر بالمعاشرة السابقة والألفة الطويلة . فهو يصطلح

ويشذ . ونحن حين نأتى بالشباب الشاذ ونحمله على الرقص مع الجنس الآخر ، وليس هذا سهلا، نحاول أن نرده إلى الهدف الجنسى الصحيح. وهو عندئذ يكسب شخصية جديدة يسترد بها صحته وكرامته الجنسيتين معاً

وفى طورنا الاجتماعى الحاضر قد يشق على العائلة أن تنصح لفتاتها بالرقص . ولكن إذا كان هذا الرقص فى العائلة أو فى النادى المحترم فليس هناك أى ضرر من هذه المرانةالمفيدة لتصحيح شخصيتها المريضة

فهرس

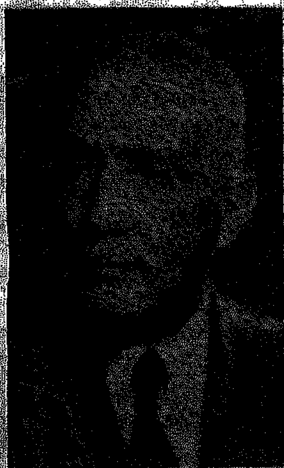
صفحة

صفحة

مؤلفات سلامة موسى

وتواريخ صدورها

١ مقدمة السبرمان ١٩١٠
٢ نشوء فكرة الله ١٩١٢
٣ الاشتراكية ١٩١٣
٤ أشهر الخطب ١٩٠٤
٥ الحب فى التاريخ ١٩٢٥
٦ أحلام الفلاسفة ١٩٢٦
٧ مختارات سلامة موسى ١٩٢٦
٨ حرية الفكر ١٩٢٧
٩ أسرار النفس ١٩٢٧
١٠ تاريخ الفنون ١٩٢٧
١١ اليوم والغد ١٩٢٨
١٢ نظرية التطور ١٩٢٨
١٣ قصص مختلفة ١٩٣٠
١٤ الدنيا بعد ٣٠ عاما ١٩٣٠
١٥ فى الحياة والأدب ١٩٣٠
١٦ ضبط التناسل ١٩٣٠
١٧ جيوبنا وجيوب الأجانب ١٩٣١
١٨ غاندى والحركة الهندية ١٩٣٤
١٩ ما هى النهضة ١٩٣٥
٢٠ مصر أصل الحضارة ١٩٣٥
٢١ الأدب الانجليزى الحديث ١٩٣٦
٢٢ الشخصية الناجعة ١٩٤٢
٢٣ حياتنا بعد الخمسين ١٩٤٤
٢٤ حرية العقل فى مصر ١٩٤٥
٢٥ البلاغة العصرية واللغة ١٩٤٥
٢٦ التثقيف الذاتى ١٩٤٦
٢٧ عقلى وعقلك ١٩٤٧
٢٨ تربية سلامه موسى ١٩٤٧
٢٩ فن الحب والحياة ١٩٤٧
٣٠ طريق المجد للشباب ١٩٤٩
٣١ (مجموعة قصص)
٣٢ محاولات ١٩٥
٣٣ هؤلاء علمونى ١٩٥٣
٣٤ كتاب الثورات ١٩٥٤
٣٥ الأدب للشعب ١٩٥٦
٣٦ دراسات سيكلوجية ١٩٥٦
٣٧ المرأة ليست لعبة الرجل ١٩٥٦
٣٨ برنارد شو ١٩٥٧
٣٩ أحاديث الى الشباب ١٩٥٧
٤٠ مشاعل الطريق للشباب ١٩٥٩
٤١ مقالات ممنوعة ١٩٥٩
٤٢ الانسان قمة التطور ١٩٦١
٤٣ افتحوا لها الباب ١٩٦٢
٤٤ الصحافة حرفة ورسالة ١٩٦٣
٤٥ معجم الأفكار



كتب سلامة موسى هذا الكتاب للشباب ، وتراوحت المواضيع التي تناولها بين اللغة والأرواح والعمر والسعادة والرقص ، ولكنه أولى فرويد إهتماما خاصاً . وهو يتساءل في أحد الفصول عما تعلمنا من فرويد ،

ويجيب ....

« لم يعلمنا فرويد علما ، ولكنه فتح بصيرتنا لفهم الطبيعة والأشياء ...

« فتح بصيرتنا ، ثم نحن نحاول الآن أن نفتح عقولنا بالعلم ، أي بالتجارب ...

« تعلمنا من فرويد ، ومن أنصاره وأصدقائه ، أن السنوات الأربع الأولى من العمر هي كنز العواطف الذي نستمد منه سائر أعمارنا . وإنها عاطفة سيئة تختبيء في كياننا النفسي فإنها ستثار وينفض غبارها على حياتنا إذا إصطدمنا بأحداث تولد مايشبه أو يقارب تلك العواطف المندسة في نفوسنا أيام الطفولة » .

٢٫٥٠

المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومؤسسة المعارف ببيروت